اقرأ

فتحي رضوان

أخي المواطن

دار المعارف بمصر

أخي المواطن

فتحي رضوان

أخي المواطن

اقرأ ١٤٨

دار المعارف بمصر



تمهيد

تقول السيدة كوبيل ، وهى من علماء الآثار المصرية ، فى كتابها « التاريخ والفن المصرى » : لقد وقفنا على قدر عظيم من الحقائق المثيرة للاهتمام ، من الفحص الدقيق للمومياءات المصرية التى احتفظت ببعضها كلية الجراحين بلندن ، ومتاحف التشريح الأخرى . . فقد قيل كثيراً إن الجنس المصرى هو مزيج من دماء أجناس مختلفة ، وإنه تأثر بالغزاة القادمين من الشرق ومن الجنوب ومن الغرب . وقد يكون هذا حقاً ولكن الحقائق التشريحية أثبتت أن أقدم فلاح سكن وادى النيل ، هو من حيث بنائه وطول قامته ، أشبه ما يكون بفلاح اليوم ، فمن الراجح أن الشعب المصرى ، يمتاز بقدرة على هضم العناصر الغريبة .

ولست أدعى أننى افهم شيئاً فى علم التشريح ، ولا فى علم الأجناس ، ومع ذلك لست أظن أن من يعتبرهم الناس علماء تشريح وأطباء ، يلقون القول جزافاً حينما يقولون إن الصفات التشريحية للمصرى الذى عاش فى مصر منذ أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة ، هو هو نفس الفلاح الذى يعيش اليوم . وإن

هذه الآلاف التى غيرت كل شىء ، حتى الجماد الذى لا ينطق، عجزت عن أن تغيره .

وليس هذا وحده ، من حقائق العلم ، هو ما يساورنى ، وأنا أقدم هذه الخواطر ، التى تدور كلها حول « القومية المصرية » .

فأنا أذكر مثلاً أنه منذ أربعة آلاف سنة ، لاحظ المصريون، أن الشعرى اليمانية، وهى نجم فى السماء ، يشرق عند شروق الشمس فى يوم من أيام الصيف ، وهدتهم الملاحظة إلى أن هذا اليوم هو يوم اكتمال فيضان النيل . وتكرر شروق هذا النجم فى هذا اليوم من الصيف ، وتكررت مصاحبة شروقه ، لاكتمال الفيضان ، فاعتبروا هذا اليوم الذى يرد إليهم فيه الماء الذى يمد أرضهم بالخصب ، ويفيض عليهم بالخير ، ويزود واديهم بالحياة أول أيام السنة . وقسموا سنتهم مثل أية أمة أخرى إلى اثنى عشر شهراً ، وكل شهر ثلاثين يوماً ، كما قسموا السنة إلى ثلاثة فصول :

فصل الفيضان ، وفصل الربيع ، وفصل الحصاد . . .

فكان ذلك أول إدراك لمعنى الزمن ، وأول ضبط لزحفه المستمر ، الذى يطوى الأفراد والجماعات والشعوب . .

وبعد ذلك بقرون طويلة ، التفت غير المصريين إلى السماء

واستوقف نظرهم القمر وانتظام ظهوره فى السماء كل فترة من الزمن ، وحسبوا أيامهم على دوراته فى السماء ، فكان حساباً خالياً من الضبط والاستقرار .

فما الذى أوحى إلى المصريين ، فى هذه الحقبة الموغلة فى القدم ، أن يقيموا حسابهم على هذه الظاهرة الدقيقة من ظواهر السماء ، وبتلك الظاهرة من ظواهر الطبيعة ؟

قبل أن تجيب على هذا السؤال ، أدعوك إلى التفكير فى سؤال آخر هو : متى تمت وحدة المصريين القومية ؟ قد تقول إن هذه الوحدة كانت فى عهد مينا وعلى يده ، وهذا غير صحيح ، فمصر عرفت الوحدة مراراً قبل أن يولد مينا ، وقد توحدت مديريات الوجه البحرى قبل ذلك التاريخ بكثير ، واجتمعت حول عاصمتين ، دمن حور (دمنهور) فى الغرب . وأوزير (أبو صير) فى الشرق ؛ ثم اجتمعت كلها فى العاصمة (بونت). كما توحدت مديريات الوجه القبلى فى حكومة العاصمة (ست) . ثم اندمجت المديريات فى الشمال والجنوب ، المرة بعد المرة ، قبل أن تصبح شيئاً واحداً ، بصفة نهائية ، حتى يومنا هذا على يد مينا . . .

فهل تعرف شعباً آخر ، عرف الوحدة الكاملة ، فى هذا العصر الذاهب . إلى أبعد آماد القدم . . إن أكثر الشعوب التى

تقود اليوم العالم لم تعرف الوحدة القومية إلا من بضعة قرون ، وبعضها لم يمض على ميلاد قوميته إلا قرن من الزمان وقليل من السنين . . . ومع ذلك قد خاضت فى سبيل الوصول إلى هذه القومية ، فى بحر طام من الدماء ، وفوق جبال شامخة من الجماجم والأشلاء ، وهى لا تزال تحن بين – الحين والحين – إلى الفرقة والشحناء .

ولا تنس أنه حينما تمت وحدة الشعوب جميعاً ، والأجناس كلها ، كانت هذه الوحدة سيادة ولاية بعينها ، على بقية الولايات المكونة للوطن ، وإفناء غيرها فيها . إلا مصر ، فقد كانت الوحدة تزاوجاً ، بين الشمال والجنوب ، فالملك – وهو من الجنوب – وضع على رأسه تاجاً جمع ما بين تاجى الشمال والجنوب معاً ، وجعل لقصر الملك بابين ، أحدهما باب الشمال والثانى باب الجنوب ، وقد نسج الشعب على منوال الملك فأصبح لكل دار بابان ، ولكل معبد بابان ، ولكل مبنى للدولة بابان ، وكان اللونان الأحمر والأبيض ، وهما لونا الشمال والجنوب ، لونين متقابلين فى كل حفلة ، وفى كل مجمع رسمى ، وفى كل مكان .

ولقد أراد علماء التاريخ والآثار أن يعرفوا متى تبدأ الحضارة المصرية ، ومتى يبدأ ، فى مصر ، عهد ما قبل التاريخ . وأوغلوا ، فإذا بهم أمام حضارة لا يسبقها هذا الطور ، من

أطوار الطفولة الإنسانية ، أفلم تعرف مصر ، عهد ما قبل التاريخ ؟

قال علماء . نعم ، إنها لم تعرف هذا الطور ، ولم تمر به ، ولا دليل على أنه مرّ بها .

وقد كان هذا فرضاً غير معقول ، ولكن العلماء الذين عاشوا بين الحفريات والآثار وقضوا حياتهم يستقرئون الأصداف والأحجار هم الذين كانوا يقولونه ويؤكدونه ، حتى جاء عالم آخر هو « جاك دى مرجان » فناقض ذلك الرأى واستبسل فى الدفاع عن رأيه ، حتى كتب له الفوز . .

هذه الحقائق العلمية تواردت على خاطرى ، وأنا أقدم لك هذه الفصول التى تدور كلها حول القومية المصرية الحديثة ، وغاية هذه الحقائق جميعاً ، أن القومية بمعناها الصافى الرائق ، هى مرادف للمصرية . فمصر هى موطن أقدم القوميات ، وأخلدها ، وأصفاها .

موطن أقدم القوميات ، لأن الشعوب الأخرى جميعاً ، عاشت عشرات القرون وعناصرها تتقاتل بعضها مع بعض ، دون أن تحس بأن رباطاً ما يربطها ، أو إطاراً عامًّا يحتويها ، فى حين كان المصريون خلال هذه القرون نفسها أمة متحدة ، يتشابه أبناء الشمال منهم بأبناء الجنوب ، فى العادات والعقائد والأزياء والتقاليد

ولون الطعام ، وشكل الزى . وينبسط سلطان الحاكم فيهم من البحر فى الشمال ، حتى ما بعد الشلالات ، فى أقصى الجنوب . ولقد بقى حالهم هكذا ، فى كل عصر ، وفى ظل كل دين ، أو كل نظام حكم : يتغير الحاكم ، ويتغير الزمن ، ويتغير الفكر ، وتبقى مصر ، ويبقى المصريون . ولا أدل على خلود هذه الوحدة المتماسكة الصلدة ، وصفائها ونقائها من أن المصريين اليوم ، لا يختلف مسيحيوهم عن مسلميهم لا فى السحنة ، ولا فى اللهجة ولا فى طريقة الحياة ، ولا فى أسلوب المعيشة ، كما أن الأغلبية الساحقة من المسلمين ، يكادون يكونون على مذهب واحد من مذاهب الإسلام ، على الرغم من أن المذاهب نفسها ، لا تؤدى فى مصر ، إلى إقامة فرقة بين مصرى ومصرى ، ومع ذلك إذا تجاوزت بنظرك حدود مصر فى أى اتجاه ، وجدت الجماعات الصغيرة ، وقد تناهبتها أسباب الخلاف المذهبى والطائفى ، فقطعت الأواصر بينها ، حتى بات كل معسكر صغير منهم ، على ضغن وحقد ، يضمره للمعسكر الآخر ، ولسنا فى صدد بيان أسباب هذه الميزة الكبرى التى امتازت بها مصر ، وازدان بها تاريخها الطويل . ولكن قد يكون من الخير أن نشير فى عجل ، إلى أن عنصرين هامين هما اللذان تعاونا على توفير هذه الميزة الكبرى . وأعنى بهما الصحراء والنيل . أما الصحراء ، فقد قامت

على حدود مصر من الشرق والغرب ، كالحارسين الساهرين اللذين حميا مصر ، من الانمياع والذوبان فى غيرها . فبقيت لها داخل هذين الحدين خصائصها الجنسية والقومية . أما النيل فقد كان أساس الحضارة فى مصر ، وأساس الحضارة الزراعية بالذات . وهى حضارة أخص خصائصها ، وأظهر طوابعها ، الاستقرار والثبات والالتصاق بالأرض . فضلا عن أن ارتباط كل المصريين من البحر إلى الشلالات بهذا المنبع الأصيل للحياة ، قد أعان على إقامة حكومة مركزية ، وأعان وجود الحكومة المركزية ، على توحيد ظروف الحياة فى مختلف أنحاء الدولة .

وإذا كان فى التاريخ كثير من المتناقضات ، فإن من أكبر المتناقضات أن يتعاون النيل ، وهو مصدر الخصب وعنوان الرخاء ، مع الصحراء ، وهى الجدب نفسه ، على تحقيق نتيجة واحدة ، هى خلق أقدم القوميات وأخلدها .

ولقد أثمرت الوحدة القومية المبكرة فى مصر ، ثمرتها العظيمة فكانت هذه الحضارة الغريبة ، التى لا يزال الناس مأخوذى اللب بتبكيرها فى كل جانب من جوانب الحياة .

وبوقوفها على حقائق فى العلم والفن وأصول التشريع والحكم والفلسفة والعقائد ، لم نصل حتى اليوم إلى بعضها ، ووصلنا إلى

البعض الآخر منها متأخرين عنها بقرون .

وليست الغاية من تقرير هذا الواقع ، أن نفخر به ، وإنما لنستمد منه إيماناً .

ذلك هو إيماننا بأن مصر لم توضع فى هذه الرقعة من العالم ، ولم تتوافر لها هذه الخصائص ، إلا لتكون قاعدة حضارية . وقد كانت فى الماضى هذه القاعدة ، فحققت للناس من أسباب العلم بالحياة ، وقدمت لهم من وسائل التغلب على الطبيعة وإخضاعها والانتفاع بها ، ما أعانهم فى مستقبل أيامهم ، على أن يسيروا فى طريق التقدم والرقى . وقد كررت مصر خدماتها للإنسانية ، فهى لم تقف عندحد ابتداع هذه الحضارة الفرعونية القديمة التى عاشت أربعة آلاف أو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد ، بل إنها استمرت تنتج ألواناً جديدة من الحضارة ، وتحتضن مدارس من الفكر والرأى على تعاقب الحقب . وقد فعلت ذلك فى بعض الأحيان وليس فى يدها زمام أمرها كله . ولكن روحها وعقلها كان دائماً ، أقوى من الحاكم الذى يحكمها . إن جامعة الإسكندرية التى ورثت جامعة عين شمس ، كانت فى تاريخ العلم والحضارة ، منارة من منارات الفكر ، أخرجت رواد الإنسانية ، فجاء ينتهل من مواردها العذبة ، الشرق والغرب ، فلما ولدت الحضارة الإسلامية ، كانت مزيجاً من الحضارات ،

وتراثاً من فلسفات ، فلم تجد وعاء يضمها ، ولواء تسير فى ظله إلا الأزهر .

فهل نبقى أمناء أوفياء لهذا السجل الباهر ، أم نخون ما خلفه لنا آباؤنا وأجدادنا ، ونبايع غيرنا بالزعامة الروحية ؟

إننا إذا أجبنا بنعم ، كان الواجب أن نفهم مدى التبعات التى سنحملها على عواتقنا حينما نقول : « نعم » .

إننا لا نعنى بالوفاء لهذا التراث القديم ، أن نفخر به ، وأن نقول للناس فى مناسبة وغير مناسبة ، إننا أحفاد الذين صنعوا هذه الحضارات . فهذا الفخر ليس سوى طليعة العمل المنشود لأنه يدل على حبنا لهذا الماضى وإعزازنا له وحرصنا على الإبقاء عليه .

ولكن الأمر يقتضينا أكثر من الفخر . . .

يقتضينا أن نعرف هذا الماضى وأن ندرسه ، ثم ندرس الحاضر على ضوئه ، وأن نفهمه بعقولنا نحن ، لا بقول الأجانب الذين لا يعرفون شيئاً عنا .

ولكن هذا لا يكفى أيضاً ، فالمطلوب أكثر من ذلك بكثير .

المطلوب أن نهيئ أنفسنا ، لأن نستأنف السير فى الطريق الذى رسمه الماضى ، وأن نعلى البناء فوق قاعدته ، وأن نكمله ، فنضيف إليه . ولا سبيل إلى شىء من هذا ، إلا إذا كمل يقيننا

بأن بلادنا فى المكان الذى وضعت فيه ، بين قارات الدنيا وشعوبها .
قد خصصت لتبنى الحضارات لا لتستهلكها ، ولتخلق لا لتعيش
عالة على الخالقين . والصورة الأولى لهذا اليقين ، ألا نستسلم
للحضارات الأخرى ، ولما تشيعه من مذاهب ، وما تروج له من
مبادئ ، وما تدعو إليه من أساليب فى العيش ، وطرائق للفكر .
وليس معنى ذلك ، أن نرفض ما ينتجه ويخلقه الغير ، رفض
العناد والمكابرة ، فالعناد والمكابرة من صفات الصغار غير
المجربين ، أو الجهال غير العالمين . وإنما أعنى أن نفكر فى كل
ما يعرض علينا ، وأن نتأمله تأمل الفاحص الناقد ، وأن نعرضه
على ما عندنا ، وما كان عندنا ، وبهذا الأسلوب الناقد الفاحص
ومع التزود ، بعلوم ماضينا ، وتراث أجدادنا نستطيع أن نكون
أمة موجهة ، وحسبك أن تتحرك عجلة الابتكار فى جهاز حياتنا
الراكد ، حتى تتوالى حركاتها ، ويتتابع دورانها فإذا أيدينا قد
وصلت إلى المعين الذى كان بعيد الغور ، عميقاً لا نصل إليه ،
بل لا نشعر به .

هذا هو جوهر الرسالة التى لا بد أن نتواصى بالإيمان بها ،
وبالدعوة إليها . ولا جدال فى أن الإيمان بها ، لا يغزو القلوب ،
إلا إذا صدر من قلوب تؤمن هى أولا ، ففاقد الشىء لا يعطيه .

وأولى الناس بأن يؤمنوا ، ملء قلوبهم ، ليشيعوا الإيمان

قلوب الغير ، هم الكتاب والمفكرون ، هم القادرون على أن يتزودوا من هذا الماضى الباهر ، ومن أنواره التى لم تخفت أبداً ، بل حجبتها سحب كثيفة من الجهل ، والتخاذل ، والظلم والطغيان والخوف والريبة .

ولا عذر لأحد من هؤلاء ، بعد أن أشرق نور عهد جديد، يريد أن يبنى مصر ، على أسس جديدة ، ويريد أن يفتح أبواب الخلق والإبداع على المصاريع لكل ذى موهبة أو كفاية . وهو لن يكون عهد حرية حقاً ، إلا إذا انتهزت العقول فرصته ، فحلقت وارتفعت عن مستوى الأرض التى شدت إليها أجسامنا زمناً طويلا .

* * *

وفى سبيل إثارة هذه الروح المتحررة ، الطامعة فى مزيد من الحرية ، الراغبة فى بعث مصر ، وبعث أمجادها الروحية ، والنبش عن ذخائرها الذهنية والعقلية ، كتبت الفصول التالية ، وقد آثرت أن تكون على صورة خطاب موجه إلى « أخى المواطن » ، وأن يستقل كل منها بفكرة ، توحى بها حقبة من حقب تاريخنا القومى الحديث ، أو شخصية من شخصيات هذا التاريخ ، ولقد زاقنى أن يكون الحديث على هذه الصورة ، لأنه عليها يشبه أن يكون مناجاة ، فإن الخطوة الأولى ، فى كل عمل كبير ،

أن تتلاقى القلوب . . وقبل ميلاد كل حركة ، كان يتلاقى قلبان ، ثم يجتمع على اجتماعهما قلوب ، يتزايد عددها ، ويتسع نطاقها اتساع الدوائر فى الماء ، عند سقوط حجر فيه .

فإذا استطاعت هذه الأحاديث الصغيرة الموجزة ، أن تثير فى نفس « أخى المواطن » الرغبة أن يقرأ من جديد ، تاريخ بلاده ، وأن يتأمل صوره ، وأن يتبين ما غمض من معانيه ، فهذه الرسالة الصغيرة ، تكون قد حققت الغرض المنشود منها ؛ والأمل المعقود عليها ، أما إذا اعتبرها قارئها ، رسالة فى التاريخ يحاسب كاتبها على قدر ما فيها من علم ، فإن التوفيق يكون قد أخطأها .

وإنى لأدعو الله بحق حبي لمصر ، وإعجابى بماضيها ، وثقتى فى حاضرها ، وأملى فى مستقبلها ، أن يكون النجاح حظ هذه السطور ، وأن يتلقاها « أخى المواطن » كما يتلقى رسالة من صديق عزيز ، يحبه ، ويضمر له الخير ويعلنه .

فتحى رضوان

١

أخى المواطن :

يظن بعض الناس أن الأمم لا تثور ، إلا حينما يهبط سوء الحال بها إلى أحط الدركات ، وقد أكد هذا الظن ، أننا نسمى عهد ما قبل الإسلام بعهد الجاهلية ، وأن ما نقرؤه عن الفترة السابقة للثورة الفرنسية ، والثورة الروسية ، وثورات المصريين فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، يرسم لنا صورة قاتمة ، شديدة السواد . صورة مظالم تترى على رأس شعب فقير ، تنتزع لقمة العيش من بين ضرسيه ، لتعطى للحاكم المتخم ، يزيد بها تخمته ، وتخلع عن جسمه الضشيل السقيم ، الخرقة التى تستر عورته ، ليأخذها غنى قوىّ ، لا لحاجة إليها ، بل لأنه لا يطيق أن يرى أجساماً تغطى ، أو عورات تستر . وصورة حكومة فاسدة ، لا تعرف من الحكم إلا أنه سبيل للكسب والثراء ، ومطية للإذلال والإرهاق . وفوضى ضاربة أطنابها ، لا تعرف معها حدود ، ولا حقوق ، ولا يستقر لها أمر أو حكم .

وهذه الصورة صحيحة ، ولكنها ناقصة : صحيحة ، لأن الظلم

يورث الأمم الغضب، ولأن الثورات لها أسبابها من ظلم الحاكم وفوضى الحكم؛ وناقصة لأن الظلم وحده لا يدفع الناس إلى الثورة. فكثيراً ما يطول عهد الظلم بشعب يتعاقب عليه طغاة قساة، لا يرحمون، ولا يتحرجون، يقترفون الآثام جهرة، ويجترحون الأخطاء، فى استخفاف وهزء، والشعب ساكت صابر، ثم لا يلبث هذا الشعب المستنيم الخانع، أن تتولاه نوبة من الغضب الجائح، لا ينفع فى دفعها نار أو حديد، ولا وعد أو وعيد. فما الذى يغير الشعوب من الخنوع إلى الثورة؟

إن الله هو الذى يغير الشعوب، فيخرج من صفوف أبنائها أناساً، يحركون فيها عناصر القوة، ويجمعون ما تفرق من غضبها، ويوحدون ما توزع من أفرادها، ولا يزالون بها، يرسمون لها طريق النجاة، ويحرضونها على سلوك سبيل الكفاح، حتى تثوب إلى نفسها، وتؤمن بحقها. ولا نظن أن هؤلاء الهداة والمرشدين، ينجحون منذ الوهلة الأولى، فى سياسة إيقاظ الهمم الخامدة، أو تحريك العزائم الجامدة، بل إنهم يلقون من الناس عزوفاً وصداً. لأن المظلومين يفقدون ثقتهم بأنفسهم، حتى يهابوا كل مجازفة، ويشفقوا من كل محاولة. ويتوهموا أن فى الحركة البوار والهلاك، وفى الجهاد، الموت المحتوم، أو الخسران المبين، وهم فى خوفهم، يكرهون من يدعوهم إلى دفع الظلم، أكثر مما

يكرهون من يركبهم بالظلم نفسه ، ولكن الهداة والمرشدين لاييئسون ، وإذا اختطفهم الموت، بقيت تعاليمهم، ملوية فى قلوب التلاميذ، محركة لهم الأتباع ، محرضة على القتال. وهكذا حتى يستيقظ فى الأمة أملها، وتستبين طريقها، وتتحرك فيها عناصر قوتها، وتهيأ لثورتها. فإذا نظرت إلى أمة من الأمم اجتمع لها ذلك الحظ ، قبيل ثورتها، راعك أن ترى مظاهر الانحلال والضعف وآثار الظلم والذل، تجاورها آيات القوة والفتوة، ودلائل العزة والمجد . ترى الظلم ، وقد طاش صوابه، يضرب يميناً ويساراً حتى تحسب أن الناس قد باتوا أعجز من أن يردوه، وترى الأحرار ، يجهرون بالدعوة إلى المقاومة ، حتى تحسب أن الظلم قد أسلم آخر أنفاسه .

ولا أريدك أن تأخذ الثورة الفرنسية ولا الثورة الروسية ، ولا إحدى ثورات التاريخ القديم مثلاً ، إنما أريدك أن تأخذ ثورتنا الحديثة المثل على ما أقول . فنحن كلنا نعلم أن الثورة الفرنسية، بذر بذورها الكتاب والمفكرون والأنسكلوبيديون ، أمثال روسو وفولتير ومونتسكيو وديدرو ، وأن إلى جانب سفه الملكية وطغيانها كان مئات وألوف من الفرنسيين يتحدثون عن الثورة وينتظرونها ، لا يحفلون بالسجن والاعتقال ولا يخافون ، كذلك كان الحال فى مصر ، فقد فتحت المعتقلات وصدرت التشريعات التى تجعل

من الملك والأسرة المالكة قدساً من الأقداس ، ومع ذلك فقد كان حديث الثورة يدور على الألسن ، وكأن كل إنسان كان يعلم أنها آتية لا ريب فيها ، ولكنه لا يدرى موعدها .

فليس صحيحاً إذن أن الأمم قبل الثورات تبلغ غاية الضعف ، بل الصحيح أنها تضع فى هذه الآونة قدمها على أول درج من درجات القوة ، فإذا جاءت الثورة ، صعدت باقى الدرجات تباعاً ، وكأن الثورة قد نفخت فيها روحاً من العزة ، وفتحت أمامها باباً مفضياً إلى المجد .

لنعد إلى مصر فنقول : إن أكثر الناس يتصورون أن مصر كانت — قبيل مجىء الحملة الفرنسية فى سنة ١٧٩٨ — قد استحالت إلى بلد قفر ، هلك فيه الحرث والنسل ، وانطفأت نور مدارسه ومعاهده وأغلقت أبواب معامله ومصانعه . وهذا حق ، ولكنه أيضاً حق ناقص . فالمماليك أتلفوا الزراعة والصناعة ، ونشروا الجهل والخرافات ، ولكنهم أهلكوا أنفسهم قبل ذلك فى صراعهم الصبيانى الذى كانت الحرب فيه لعبتهم المحببة ، فاستيقظ الفلاح ، لأنه أحس أن سيادة هؤلاء الحكام زائفة ، لأنها لا تمثل نبلا ، ولا شرفاً ، فأدرك أن الأمر سيئول إليه ، إن آجلاً أو عاجلاً ، وأن هذا البلد بلده ، فلما جاء نابليون إلى مصر ، بأسلحته الجديدة ، فر المماليك من وجهه ، وتركوا الفلاح

وحده ، فاغتبط لأن العبء سقط على كتفيه دون غيره، وأن الأيام أثبتت أنه أشرف من هؤلاء الذين كانوا يسومونه الخسف ويسلبونه القوت ويدلون عليه بأن صناعتهم الحرب ، وصناعته هو الرى والحرث. فارتفع الفلاح إلى المستوى العالى الذى وصلت إليه الحوادث .

ومن يقرأ أحداث ثورة أكتوبر سنة ١٧٩٨ التى نظمها الشعب المصرى ضد الحملة الفرنسية، وكيف أدارها زعماء ذلك الشعب الذين لم تكن لهم سابقة فى الجهاد، ولا دراية بتنظيم الثورات ، يستقر فى يقينه أن ذلك لم يكن أبداً ثمرة تطور مفاجئ ، وأن الحوادث الكثيرة التى سبقته هى التى أدت إلى انبثاق هذه الروح الاستقلالية، التى حاول نابليون أن يداورها ، فلم ينجح ، فحاول أن يواجهها فلم ينجح ، فنفض يده من هذه المحاولة الخاسرة على وجهيها ، وفر إلى بلاده ، تاركاً كليبر ، ليلقى فى مصر مصيره على يد سليمان الحلبى ، ومينو ، ليبلغ فى منافقة المصريين إلى حد إدعاء الإسلام ، والتزوج من مصرية مسلمة .

ولقد واصلت هذه الروح نموها ، حتى وضعت محمد على على رأس مصر ، كزعيم مختار . ثم كانت هذه النهضة التى يجب أن لا نخجل من تلاوة صحائفها : نهضة الصناعة والزراعة ،

ووثبة الجيش ، وانطلاقه فى الشمال والجنوب ، مظفراً منتصراً .
إذ لم يكن فى وسع محمد على ، أن يصنع ما صنع ، ولم يكن
خبراؤه الأجانب الذين أرادوا أن يتخذوا من محمد على أداة
لضرب العالم الإسلامى بعضه ببعض ، قادرين على أن يصنعوا هذه
الفتوح ، وإنما الذى صنع هذا كله الشعب الذى كان يثور
على المماليك إبراهيم ومراد ، والذى ثار على الفرنسيين فى المرة
بعد المرة . وكانت مصر قد امتلأت ، واتسعت طاقتها ، وأصبح
من المحتوم أن تؤدى دورها .

٢

أخى المواطن :

إذا أردت أن تجعل من ابنك عاملاً صغيراً ، فأنت تلحقه بأحد «الأسطوات» ليدربه فى بضعة أيام أو بضعة أسابيع على العمل ، أما إذا أردت أن تجعل منه «أسطى» فأنت تبعث به إلى مدرسة صناعية ابتدائية يدرس فيها بضع سنوات لا تزيد على أربع ، أما إذا أردت أن تزوده بثقافة صناعية فلا بد أن يتلقى العلم والتدريس فى مدرسة متوسطة سنوات أربعاً ، بعد أن يدرس دراسة ابتدائية ، سنوات أربعاً أخرى ، أما إذا أردت أن تخلق منه مهندساً فلا بد من دراسة طويلة ، يبلغ مداها أربعة عشر عاماً على الأقل ، أما إذا تمنيت أن يكون من أصلابك عالم فى الهندسة ، فالدراسة تطول ، بطول العمر .

وقد يتبادر إلى ذهنك أننى سأحدثك حديثاً فى الصناعة .

ولكنى أردت بهذه المقدمة الطويلة ، أن أشرح لك أن على قدر خطر الدور الذى يلعبه الإنسان فى الحياة ، يطول أو يقصر إعداده وتدريبه وتعليمه وتلقينه .

فالدور الصغير لا يتقاضى من الإنسان إلا جهداً صغيراً ، والعمل الكبير يتقاضى منه جهداً كبيراً . والأمم كالأفراد ، لا تستطيع أن تلعب دوراً هاماً ، بين الأمم والشعوب ، إلا إذا طال إعدادها ، فمرت عليها تجارب وتعاقبت محن : إلا إذا حاولت وأخفقت ، وحاولت ونجحت ، ثم تقلص النجاح من بين يديها ، وأفلت كما يتسرب الماء من أصابع الكف المقبوضة.

ومصر ، بلادنا العزيزة ، أغرب الأمم ، لأنها تقفز من الحضيض إلى القمه ، وتنحدر من القمة إلى الحضيض ، بلا تدرج ، فتاريخها مفاخر ومآس ، وكأن هذا التاريخ لا يعرف إلا العدو والقفز ، أو الهزل والكسل .

ذلك لأن مصر كالحسناء ، إما أن تكون عفيفة مصونة العرض ، قوية بمالها وجاهها وأهلها ، فترد عنها طمع الطامعين ؛ وإما أن تكون ضعيفة فقيرة ، فتصبح نهباً مستباحاً لكل ذي شهوة .

ولذلك لا بد — لكي تنتقل من الحضيض الذي أوصلها إليه أسلوب حكم العثمانيين الذي بدأ سنة ١٥١٧ ، وأسلوب حكم المماليك في القرن الثامن عشر — أن يطول إعدادها وتدريبها ، وأن يستيقظ شعبها على دوى هائل من الأحداث ، وأن يجرب ساعديه في الضرب ، وساقيه في الركل ، وأظفاره في الوخز ،

حتى يتوافر له سيف يقطع ، ورمح يطعن .

ولقد بدأت هذه التجارب فى الحملة الفرنسية، التى جاءت إلى مصر ، وعلى رأسها نابليون بونابرت، القائد الشاب الذى كان يمثل عصرين فى وقت واحد ، كان يمثل الثورة الفرنسية ذات الشعار المثلث ، وكان يمثل نهاية الثورة الفرنسية، وبداية عهد من الحكم الفتى ، تلهبه أحلام الحرية، ويقيده ويكبله طموح إلى المجد الإمبراطورى .

انظر فقط إلى المنشور الذى وجهه نابليون أو بونابرته — كما كان يسميه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى رحمه الله — :

« من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون فى الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شىء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم »

ثم يقول بونابرته : « قولوا للمماليك إن جميع الناس متساوون عند الله وإن الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم . . . فإن كانت الأرض المصرية التزاماً للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم » .

فالغاصب المعتدى، يشعر أنه لا بد من أن يعلى هو دعوى المعتدى عليهم . فهو يحدثهم أن بلادهم أحسن بلاد العالم، وأنه لا نظير لها ولا ند. وهو يقول لأهل الوطن المعتدين : إن أرض هذا الوطن ملكهم. وليس ثمة شيء أخلد من الكلام وأبقى منه . لقد دالت دول ، وثلت عروش ، وتقوضت صروح ، واختفت قلاع وحصون ، وبقى شعر الشعراء ، وحكم الحكماء ، وخطب الخطباء ، وبقى القرآن الكريم ، وبقيت الأناجيل والمزامير ، تطالعها البشرية وتتزود منها ، وتتأثر بها . ولذلك لم يكن معقولا ، أن تذهب كلمات بونابرته ، هذا الفاتح الغازى ، الذى رأى أن جيوشه وجحافله وجنوده وبنوده ، لا تجديه فى تحقيق الغرض الذى قصد إليه ، فاضطر اضطراراً أن يقول للشعب المصرى : إنه صاحب الأرض التى يقيم عليها ، وإن بلاده خير بلاد الدنيا قاطبة . ولقد كان هذا الكلام ، كالبذرة فى الأرض الخصبة ، ذلك لأن المصريين فهموه على معناه الصحيح ، فانتووا أن يذودوا عن حوضهم؛ وفى هذا يقول عبد الرحمن الجبرتى :

« نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناوأة بذلك كل يوم فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق فكانت كل طائفة من طوائف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خياماً ، أو يجلسون فى

مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها .

«إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم» .

إلى أن قال :

« وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشىء يملكه ، تهيأ الشعب إذن للنضال ، بلا قيادة ، وبلا سلاح ، لأنهم كانوا يجمعونه ، على قلته » .

ويقول الجبرتى أيضاً فى هذا الصدد :

« وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفاً والرصاص بتسعين وغلا جنس أنواع السلاح وقل وجوده وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق » .

فعل الشعب ذلك فماذا فعل القادة والأغنياء ؟ ماذا فعل الأمراء والمماليك ؟ يقول الجبرتى : «وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم وبعض المشايخ القادرين ، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم » .

كانت هذه تجربة من تجارب الشعب ، أهلته لهذا الدور الذى لا بد أن تلعبه مصر ، فى العالم ، والذى لم تكن لترتفع إليه ، وتصلح له ، إلا فى وقت طويل ،لأن مصر لا تصلح لأن تكون بين الأمم صبى صانع ، ولا «أسطى» فى ورشة ،بل لا بد

أن تكون أستاذاً كبيراً موجهاً ، أو لا تكون شيئاً مطلقاً .

وقد اعترت هذه التجربة عثرتها ، بعد هذا الكفاح الفاشل فى بداية الحملة الفرنسية ، فإن زعماء الشعب الذين ملأوا الفراغ الذى كان المماليك يشغلونه ، ابتدأوا يحسون بتبعاتهم ، ويدركون واجباتهم . ويروى الجبرتى :

« طلب صارى عسكرى بونابرته المشايخ فلما استقروا عنده نهض بونابرته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشرقاوى فرمى به إلى الأرض وامتعض وتغير مزاجه وامتقع لونه واحتد طبعه فقال الترجمان يا مشايخ أنتم صرتم أحباباً لصارى عسكر أى (القائد العام) وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة فى قلوبهم فقالوا له لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا » .

فالقائد الفاتح كان يود أن يستدرج زعماء الشعب ، إلى ما يريده ، بالملاطفة ، والتودد ، وزعماء الشعب كانوا يقبلون المجاملة ولكن لم يكونوا مستعدين أن يداهنوا إلى أبعد من ذلك ، ولو أدى الأمر إلى مجابهة الحاكم الغازى ، وإغضابه .
وكان ذلك أول السطر فى الصفحة الأولى من تاريخ مصر الحديثة

خى :

كانت الزعامة الشعبية، فى أوائل القرن التاسع عشر ، زعامة وليدة، وكانت تجربتها صغيرة، ولكنها كانت موجودة ، على أية حال، وقد دفعت ثمن الزعامة الحقيقية ،وارتفعت إلى مستواها الجدير بها ، وقد كانت حداثتها ، وقلة تجربتها،سبباً فى أن محمد على سهل عليه خداعها أول الأمر ، ثم التخلف منها نهائيًّا آخر الأمر. ولكن لم يكن ذلك شعوراً كله ، فإن محمد على الذى صفى الزعامة الشعبية وقضى عليها ، صفى فى الوقت نفسه المماليك ، فلم تعد هناك إلا قوتان : قوة الحكم الأجنبى ممثلة فيه ، وفى عائلته من بعده ، وقوة الشعب . وكان الشعب يقاوم حيناً ويستسلم حيناً ، ولكنه بقى موجوداً يعلن عن نفسه . ويحمل الحاكم على أن يعترف به . وقد أراد محمد على أن ينشئ جيشاً من أولاد المماليك وأن يستغنى بهم عن أولاد مصر فلم يفلح ، وأصبح الجيش مصريًّا، وأصبحت البحرية مصرية ، وإن بقيت قيادتها أجنبية ، ولم ينقض على وفاة محمد على أكثر من عشر سنوات ، حتى أحس الذين جاءوا بعده أنه لابد من أن يُفتح الطريق ، فى الجيش، لأبناء الشعب ، فارتقى فى درجات هذا الطريق ، عدد من أبناء الفلاحين ، كان منهم أحمد عرابى.

٣

أخى المواطن :

سأحدثك عن أحمد عرابى ، ولكنى أرجوك ألا تتوقع منى أن أجلى لك جوانب الثورة العرابية، أو أن أتحرى معك بواعثها ودواعيها ، فهذا كلام سمعته مراراً ، وقرأته كثيراً ، وهو فى متناولك ، كلما شئت منه مزيداً . إنما أحاول أن أفضى لك بخواطر متناثرة، توحى بها هذه الثورة، وهى خواطر تبرز النواحى الروحية، للثورة العرابية، وتؤكد صلة تلك الثورة بثورة آبائنا فى عهد المماليك وقبيل تولى محمد على الملك .

قلت لك إن محمد على حاول أن ينشئ جيشاً من أبناء المماليك ، والضباط الأرناءود الذين جاءوا معه . وقلت لك إن هذه المحاولة لم تفلح ، فلم يكن المماليك قوم حرب وقتال ، وكان النظام ثقيلا على أنفسهم . فاضطر محمد على اضطراراً أن ينشئ جيشاً من أبناء الفلاحين. فعل ذلك وهو كاره . كره أن يكون الجيش من أبناء مصر ، لأنه لم يكن يتصور أنهم يليقون بهذا الشرف، أو أنهم يقوون على احتمال تبعاته ومتاعبه . ولأنه

لم يكن يود أن ينشئ من مصر دولة لأبنائها ، بل كان أقصى ما يتمناه أن ينشئ في مصر دولة له ولأبنائه . وهكذا أصبح فى مصر جيش مصرى ، فكتب لنفسه صفحة تزاحمت فيها المفاخر أكثر مما تزاحمت فى صفحة أى جيش آخر . فلقد حارب المصريون فى كل جو وفى كل ظرف . حاربوا فى الصحارى ،وفى الجليد ، وعلى ضفاف الأنهار ، وعلى شواطئ البحار ، وفى سفوح الجبال وفوق قممها . حاربوا فى العالم القديم والحديث فى أوربا وآسيا ، وأفريقيا وأمريكا : حاربوا عند خط الاستواء ، وفى الحبشة . وفى المكسيك حيث تتلظى الحرارة . وحاربوا فى صحراء السودان وفى صحراء الحجاز ونجد ، كما قاتلوا فى القرم ، وفى نزيب ، حيث تتجمد الأطراف ويأكل البرد لحم البشر . وقاتلوا تحت أسوار عكا بالشام ، وفى مياه نفارين باليونان .

ولكن لم يكن دور الفلاح ، ابن مصر ، فى هذا الجيش ليزيد عن دور الجندى التابع ، فقد خاف محمد على أن يصل المصرى إلى مركز القيادة ، أو ما يدانيها ، لأنه لو اقترب من تلك المكانة ، فقد كملت شخصيته واستيقظت فى نفسه رواسب القيادة والزعامة التى ورثها عن أجداده وأجداد الإنسانية وانتفض عملاقاً لا ترد له كلمة ، وأحاطته صنوف المجد ،

بهالآتها الكبرى ، وشرّق الجيش المصرى، وغرّب ، وغزى وفتح ، وأعان حيث تعز المعونة ، وأبلى حيث فر المقاتلون المحترفون ، ولكن التاريخ لم يجُد على الفلاح الذى تكون منه هذا الجيش ، وتغذى منه لحمه ودمه ، بحرف واحد ، وإنى لأسائل المؤرخين المحققين ، منصفيهم وظالميهم ، أن يذكروا لنا اسم مصرى واحد فى هذه المعارك الكبرى التى خاضها المصريون وحدهم .

وقد بقى الحال على هذا المنوال ، فى عهد إبراهيم وعباس ، ثم فى عهد سعيد ، الذى لقى من أسرته عنتاً ، وكانت تركيا ، تضيق عليه الخناق ، فلم يجد من يحميه ، إلا هذا الفلاح المصرى المهجور المفترى عليه . والإنصاف يقتضينى أن أعلن أن سعيداً فعل للفلاح المصرى أكثر مما فعل كل ولاة مصر ، بل أكثر مما فعل فيما بعد بعض رؤساء حكوماتها من الفلاحين . لقد فتح باب الترقى لأبناء الفلاحين فى الجيش ، وسوى فى الخدمة العسكرية بين أبناء الفقراء وبين أبناء العمد والمشايخ الذين كانوا يدلون على الناس بأنهم أكبر من أن يؤدوا فريضة الخدمة العسكرية . أو قل أصغر من أن ينالوا شرفها .

ولقد تحقق كل ما خمنه ، وتوجس منه محمد على ، فما كاد باب الترقى للفلاحين يفتح ، حتى دخل منه إلى المجد : أحمد عرابى ، ومعه جماعة من أبناء الفلاحين أمثال : عبد العال حلمى ،

وعلى فهمى ، والروبى ، ومحمود فهمى .

فوصول أحمد عرابى إلى رتبة القائمقام فى الجيش ، كان فى الواقع وصولا للشعب المصرى إلى هذه الرتبة ، فقد كان الشعب المصرى كله ، فى مجال الحوادث الدولية ، وفى مجال السياسة الداخلية ، « نفرا » يتحرك ولا يحرك، يسمع ويرى ، ويحس ويتألم ، ولكن لا يتكلم، ولكنه مع مر الأيام أخذ يفرض نفسه على الحوادث ، وعلى الناس ، وعلى الحكام ، فارتقى حتى كان فى رتبة الباشجاويش فى عهد سعيد، ومن ثم بدا يصعد سلم الترقى فى كادر الضباط .

وصل عرابى إلى رتبة القائمقام ، وكأن الشعب المصرى كله قد وصل إلى هذه الرتبة ، فقد أخذ الاستعمار والصهيونية العالمية تصفع الخديو إسماعيل صفعات ، لا تأديباً له ، فقد كان الخديو إسماعيل ، أحسن ما جاد به الزمن ، على هذه العصبة المتآمرة على مصر وعلى العرب وعلى المسلمين . وكان لا بد لإسماعيل من سند، فكان السند هو الشعب .

فعرابى فى الجيش كان فى الواقع رمزاً للفلاح فى الدولة. وسواء أكان عرابى قد اتجه إلى تزعم الثورة وقيادتها، أم لم يتجه ، فقد كان هو وإخوانه، عنوان طبقة من طبقات الأمة المصرية . وقد كان من المحتم أن يحس عرابى وإخوانه، أنهم غرباء فى الجيش

وأنهم وصلوا إلى هذه المكانة على الرغم من إرادة أصحاب الأمر والنهى. ولما توالت الإهانات عليهم تحرك فيهم شعور بحق الجماعة التى يمثلونها . وفى هذا يقول أحد الكتاب الإنجليز الذين شهدوا حوادث الثورة العرابية من مقدماتها :

« وكان ممن تزعموا التذمر ضد حركة التفريق الطبقى، فى الجيش، أحمد بك عرابى، الذى كان قد بلغ مرتبة القائمقام ، وهى مرتبة لم يكن من المألوف أن يتولاها فلاح . مما أكسبه نفوذاً وتأثيراً غير عاديين على مواطنيه من الناطقين بالعربية، وكان الدفاع عن حقوق الفلاح هو الميزة التى تفرد بها عرابى بين دعاة الإصلاح فى أيامه ، إذ كانت حركة الأزهر حركة عالمية دون تمييز بين العناصر... أما حركة عرابى فكانت حركة عنصرية من أصلها ، ومن ثم فهى أكثر اصطباغاً بالصبغة القومية .

« والواقع أن عرابى كان يمثل الفلاح المصرى أتم تمثيل، وكان هذا النوع من الرجال موضع إهمال تام لدى الباشوات من أتراك وشراكسة .

« إذ ظلوا أجيالاً يسترقونه ، ويسخرونه، فلم يكونوا ينظرون إليه كأكثر من أداة يستعملونها لمصلحتهم. وكان رياض (يقصد رياض باشا رئيس الوزراء فى ذلك العهد) من البداية حتى النهاية يزدرى عرابى . بل إن دعاة الإصلاح فى الأزهر لم

يكونوا يقيمون له كبير وزن كقوة سياسية؛ أما أبناء طبقته من الفلاحين ، فقد رأوا فيه واحداً منهم تضخمت فيه صفتهم. وجدير بنا أن نتذكر أن التاريخ المصرى ظل زهاء ثلاثمائة سنة على الأقل لم يشهد فلاحاً قحًّا يرقى إلى مركز ذى أهمية سياسية تذكر ، أو يتألق كمصلح ، أو يجسر على أن يهمس بأية كلمة عن احتمال القيام بثورة . » فالثورة العرابية ليست ثورة دستورية كما كنا نحاول أحياناً أن نسميها ، أو ثورة ضباط يطلبون إنصافهم فى الترقيات والعلاوات فى درجة الأعمال التى توكل إليهم ، وليست هى حركة تحرير وطنى ، ولكنها شىء أعمق من ذلك ، هى حركة أهل الوطن الأصلاء ، هى حركة المصرى الذى عاش حياته أشبه شىء بالحيوان ، وأحياناً أقل درجة منه . هى حركة الفلاح الذى كان أقرب ما يكون إلى المحراث والساقية والشادوف والنورج يعمل كثيراً أو قليلاً ، يعمل بأمانة ، أو فى جو ملؤه الخوف والخديعة والرغبة فى الانتقام ، ولكنه على أية حال لا يعبر عن نفسه ، ولذلك كان فنه شكوى ، سواء أكان هذا الفن غناء أم موسيقى ، أم أدباً يجرى على الألسن كشعر أو موال أو زجل .

وقد كان الحكام الذين وضعوا الفلاح فى هذا الموضع ، غاية فى الذكاء وآية فى بعد النظر. لأنه على هوان مظهره ، وسوء شكله ، وضعف صحته وقلة حيلته ، مخزن هائل ملىء بالمتفجرات

والمدمرات . حسبه عود ثقاب واحد لينفجر ، وهو حين ينفجر يصل إلى آخر الشوط فى خطوة . ولا أعنى هنا بالانفجار الثورة، و إنما العمل ، سواء أكان عملاً حربياً أم سلمياً، فالمصرى الذى كان يفر من الجيش هو المصرى الذى هزم جيش تركيا ، أقوى جيش فى أوربا، فى ذلك الحين . والمصرى الذى لا يطيق أن يسير بمركب فى البحر بضع ساعات ، هو المصرى الذى صنع أسطولاً ، جعل الإنجليز والفرنسيين يجتمعون عليه بأساطيلهم ، فى نفارين ، لأن أسطولاً واحداً لا يكفى لمنازلته .

وإذا أردت دليلاً على أن المصرى يثب من الحضيض إلى القمة دفعة واحدة، فانظر ماذا فعلت فيه حرب الحبشة التى أعلنها الخديو إسماعيل فى أخريات أيام حكمه . فلقد احتمل المصرى الكثير ، احتمل السخرة . واحتمل نظام الإلزام الذى كان يسرق من الفلاح ماشيته ورزقه ومحاصيله . ولكنه حينما فكت قيوده ، لم يعد يطيق عشر معشار ما كان يألفه ، ويقول بلنت فى هذا أيضاً :

«وكان تدخل الجيش فى شتاء ١٨٨٠ — ١٨٨١ كقوة سياسية فى مصر ، من أهم الأمور . . ويرجع ظهور الجيش كعامل من عوامل التذمر ، إلى الحملة المصرية على الحبشة، إذ أنها هدمت مكانة الخديو . . كما أن المتاعب المالية أدت إلى تخفيض

مرتبات الجنود وعدم انتظام دفعها . . ولم يعد الجنود الذين قدر لهم أن يعودوا من الحملة ، يحترمون قادتهم بعد أن ظهر عدم جدارتهم . . كما قرب التذمر من القادة بين الجنود وبين ضباط الصف، لا سيما أن المناصب الرفيعة كانت وقفاً على الشراكسة الذين لا يجيدون غير اللغة التركية ، فى حين أن مراكز الجنود وصغار الضباط كانت مخصصة لأبناء الفلاحين ممن لا يتكلمون سوى العربية . . وزاد من الشعور بالفوارق أن تأخر المرتبات كان مقصوراً على هؤلاء الأخيرين دون الشراكسة . »

فواعجباً . . . المصريون لا يطيقون تأخر صرف مرتباتهم . . وقد احتملوا فى الماضى أكثر من ذلك أضعافاً مضاعفة . . بل إن عرابى اصطدم بوزير الحربية أول ما اصطدم، لأن عرابى رفض أن يعمل جنود لوائه فى حفر ترعة التوفيقية . . .

ألم أقل إن حركة عرابى ، كانت حركة الجيش المصرى ، وإنها لم تكن ثورة ولم تكن انقلاباً ، ولم تكن نهضة . . إنما كانت حركة من حركات الطبيعة كانتقال الشموس فى أبراج السماء . . حركة ارتفاع بطيئة ، ولكنها مستمرة ، خفية ، ولكنها فعالة ومؤثرة . . .

٤

أخى المواطن :

لم تكن مصادفة محضة أن تتوالى مقدمات الاحتلال البريطانى على مسرح السياسة العالمية ، جامبتا رئيس وزراء فرنسا ، ودزرائيلى رئيس وزراء إنجلترا ، وروتشيلد صاحب الملايين التى تكسبه نفوذاً لا حد له ، على الدول ورؤساء الدول ، فجامبتا ودزرائيلى وروتشيلد صهيونيون بالمعنى الدقيق لكلمة صهيونى ، فليسوا هم مجرد إسرائيليين ، يدينون بالدين اليهودى بل هم إسرائيليون ، يتوقون إلى أن يعيدوا بناء هيكل سليمان ، وأن يستعيدوا مجد إسرائيل ، على حساب سلام الناس وأمنهم . وهم على عادة الصهيونيين ، يحضرون للمسائل تحضيراً أكبر صفاته الأناة والصبر ، والتربص للفرص، حتى إذا لاحت انقضوا عليها انقضاض الباشق، من علٍ ، فينشب فيها أظفاره فلا يدعها ، حتى يلتهمها .

فدزرائيلى حينما اضطر الخديو إسماعيل لسفهه وسوء سياسته المالية ، إلى بيع ١٧٦,٦٠٢ من أسهم قناة السويس التى كانت

تملكها مصر ، أسرع إلى تدبير المال ، لإنفاذ هذه الصفقة ، ولم يجد من يبادر إلى مده بالمال المطلوب إلا روتشيلد ، وأنت لا شك تحس حينما تقرأ قصة شراء هذه الأسهم الباقية فى ملك مصر حتى سنة ١٨٧٥ ، أنها لم تكن إلا مؤامرة يدبرها دزرائيلى مع روتشيلد ، وهدفهما أن يحتلا مصر . فقد تم شراء الصفقة ودفع الثمن إلى الخديو إسماعيل ، فى غيبة البرلمان البريطانى ، وبغير علمه، أو موافقته . وقد أحيطت الصفقة فى كل مراحلها بالكتمان والسرية ، لأنها لم تكن صفقة مالية ، بقدر ما كانت مؤامرة سياسية .

وعلى الرغم من أن حديثنا يدور حول الثورة العرابية ، إلا أننا لا نستطيع أن نمر على صفقة شراء أسهم الحكومة المصرية فى قناة السويس ، مرور العابرين ، لأن النظر فى هذه الصفقة يؤكد لك أن الاحتلال البريطانى ، كان عملاً صهيونياً صرفاً ، تحالفت فيه الصهيونية مع الاستعمار ، إن كانت الصهيونية والاستعمار شيئين منفصلين .

وإليك إجمال القصة . . علم مالى فرنسى اسمه إدوار درفيو ، إن الخديو إسماعيل فى ارتباك مالى شديد ، فأرسل إلى أخ له فى الإسكندرية يدعى أندريه ليعرض على الخديو إسماعيل أن يبيع أسهم مصر فى القناة مقابل ٩٢ مليوناً من الفرنكات ، ولكن

ضخامة هذا المبلغ كانت تقتضى تعاون عدد من الماليين الفرنسيين الكبار ليجمعوه ، وتلكأ الماليون الفرنسيون ، وتلكأت السياسة الفرنسية كعادتها بصفة عامة وفى المسائل المصرية بصفة خاصة . وفى هذه الأثناء وصل نبأ هذه الصفقة إلى الإنجليز ، فكلف دزرائيلى الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا فى ذلك الحين ، بأن يعرض على الخديو بيع الصفقة ، ووافق الخديو فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٥ على أن يبيعها بمائة مليون فرنك فرنسى أى بما يساوى أربعة ملايين جنيه استرلينى ، وأبرق قنصل بريطانيا بهذا إلى دزرائيلى رئيس الحكومة . .

كان البرلمان فى إجازة ، وكان اليوم التالى يوم أحد ، والبنوك معطلة . وكان لا بد لإبرام الصفقة من صدور قانون . . وفى بريطانيا تقوم التقاليد عموماً ، والتقاليد الدستورية خصوصاً ، كالحراب المسنونة لا يتخطاها ويتجاهلها إلا كل مجازف . إلا أن الصهيونية هى مقامرة أو مغامرة لا تحفل بالقيود التى يحفل بها الذين يسيرون على سنن من الأحلاف والقواعد المرعية . ومن هنا سأل دزرائيلى ابن عشيرته روتشيلد أن يقرض بريطانيا أربعة ملايين من الجنيهات على أن يقبض سمسرة قدرها ٢ ٪ من قيمة الصفقة ، ولم يتردد روتشيلد فى أن يدفع المبلغ مع ما فى دفعه ، من غير موافقة البرلمان ، على الصفقة من مخاطر . . ولعل الناس من ذلك

بأمر تلك الصفقة فذعرت السياسة الفرنسية والعالم كله لأنها فهمت أن الأمر فى هذه الصفقة يتجاوز المال ، إلى احتلال مصر كلها بعد سبع سنوات من تلك الصفقة . وهذا ما قالته مجلة العالمين الفرنسية بعد شهر من عقد الصفقة ، فقد جاء فى عدد أول ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، فى مقال ترجمه السيد الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ما يلى :

« إن هذا العمل سياسى محض ، وهنا وجه الخطر ، فإذا لم يكن فى ذاته احتلالاً لمصر فإنه الخطوة الأولى لهذا الاحتلال » .

هذا ما فعله روتشيلد فى الخطوة الأولى من خطوات الاحتلال فانظر ما فعله فى شأن خطوة أخرى من خطوات الاحتلال ، تلك هى المبادرة بخلع إسماعيل حينما تبينت الصهيونية أن الأمر لن يخرج عن أحد أمرين ، إما أن يتولى الشعب خلع إسماعيل بنفسه ، وهو احتمال على ضعفه فى ذلك الحين ، كان يطير له صواب الاستعمار والصهيونية ، لأنه إيذان بانفجار الشعب المصري وانطلاقه من قيوده ، وإما أن يحتمى الخديو بالشعب ، ويترضاه ، وهذا ما كانت بوادره وتباشيره قد لاحت فى الجو ، فقد كلف إسماعيل ، شريفاً ، بوضع « دستور » وأعلن أنه سيحكم من خلال مجلس الوزراء ، يقاسمه السلطة ، وترك جمال الدين الأفغانى يبذر بذور ثوراته الفكرية التى كانت تهز

الاستعمار من جذوره .

وكانت النتيجة فيما لو ظفر الشعب المصري بحقوقه الدستورية، أسوأ فى رأى الاستعمار والصهيونية مما لو خلع الشعب الخديو ، ولذلك كان لا بد من عمل سريع ، تتجه معه الأحداث إلى وجهة جديدة ، فيتولى الاستعمار خلع الخديو ، ثم يستفيد من اضطراب الأمور الذي يلى ذلك الخلع .

ولعلنا لا نجد صورة من صور تحالف الاستعمار البريطانى مع الصهيونية العالمية ، أكثر وضوحاً مما نراه فى حوادث الاحتلال البريطانى لمصر ومقدماته ، فقد كان فى مصر ، مراقب مالى بريطانى هو السير ريفرز ولسن الذى أصبح فيما بعد وزير المالية وقد اعتدى عليه الضباط المصريون الثائرون ثم طرد بفضل هذه الثورة من الوزارة ، وخرج من مصر مغضباً محنقاً . فانظر ماذا يقول بلنت فى شأنه :

« ولكن الذى لم يذع هو ذلك الدور الذى لعبه آل "روتشيلد" والذى علمته فيما بعد من "ويلسون" — وكان فخوراً بأنه انتقم لنفسه — فى عودته من مصر مخذولا يمم شطر آل "روتشيلد" فى باريس ، وبين لهم الخطر الذى يتهدد أموالهم من وراء الانقلاب الذى لا بد أن يترتب على قلاقل القاهرة والإسكندرية . . وأقنعهم بأن الخديو كان يعتزم أن ينفض يديه

من ديونه و يلغى التزامه بها ، متخذاً لنفسه ستاراً بإعلان الحكومة الدستورية فى مصر . . ومن ثم فإنهم ولا بد خاسرون كل مالهم ما لم يبادروا إلى الحيلولة بين الخديو و بين تنفيذ ذلك » .

« ونجح ويلسون فى إثاره ذعر آل روتشيلد وحملهم على استخدام ما كان لهم من نفوذ سياسى هائل لتحقيق التدخل الفعلى . . فعملوا أولا إلى جذب الخيوط التى كانوا يحركون بها حكومتى إنجلترا وفرنسا ، ولكن هذا لم يجدهم فتيلا ، إذ لم تكن الحكومة الإنجليزية على استعداد للتدخل ، ولا سيما أن الاضطرابات كانت قد شبت فى جنوب أفريقيا . . ومن ثم اتجه آل روتشيلد إلى برلين ، وإلى بسمارك بالذات ، الذى كان يبسط حمايته على المؤسسة اليهودية الضخمة . . وبادر بسمارك إلى الإيحاء إلى حكومتى إنجلترا وفرنسا بأن الحكومة الألمانية ستحتضن قضية آل روتيشلد إذا كانتا عاجزتين عن التدخل . . وكان هذا الضغط كافياً لتوجيه ضغط أوربى إلى الباب العالى ، أدى إلى البرقية التى تلقاها إسماعيل بخلعه . . وكان من نصيب لاسيل أن يحمل إليه النبأ » .

وإذا أردت أن ترى صورة أخرى من صور تعاون الاستعمار مع الصهيونية فى تبرير الاحتلال البريطانى فاقرأ ما يقوله بلنت عن موقف جامبتا ، من المذكرة التى أعدتها حكومتا بريطانيا وفرنسا

وأرسلتاها إلى الحكومة المصرية ، بعد أن نجحت الثورة العرابية ، واجتمع البرلمان المصري ، وباشر سلطاته ، على أحسن ما يرام من التوفيق والاعتدال . وكان ذلك النجاح قذى فى عين الاستعمار ، وفى عين جامبتا رئيس وزراء فرنسا ، وهو صهيونى ثالث كما مر بنا . فكان لابد من مظاهرة بريطانية فرنسية لتهديد حكومة مصر الدستورية التى تستند إلى تأييد من الشعب ، وإلى سند من الجيش ، ويقول « بلنت » :

« فإن غزو تونس جعل شمال أفريقيا بأسره يشتعل ثورة ، فجاء "جامبيتا" وهو عازم على أن يستخدم أشد الإجراءات ، لأنه كان يخشى أن تقوم ثورة إسلامية عامة ، لذلك رأى فى الحركة القومية المصرية مظهراً جديداً للتعصب الإسلامى . . كما أنه ــ لأصله اليهودى ــ كان على علاقة بالمصالح المالية العليا المتعلقة بمصر ، فعوّل على أن يسعى لفرض التدخل الأجنبى على مصر ، ومن ثم كان راغباً فى أن تشترك معه حكومتنا فى حركة صليبية ضد الإسلام ــ باسم المدنية ــ تكون أولى خطواتها تشديد الرقابة الأوروبية المشتركة فى القاهرة »

فأنت أينما أدرت وجهك ، لا تجد إلا هذين التوأمين يسيران معاً ، ويعتمد أحدهما على الآخر ، حتى يثبت فى يقينك أنهما شخص واحد ، يبغى هدفاً واحداً ، ويعمل بأسلوب واحد .

والحق أنهما كذلك . فإن فى العالم اتجاهين قديمين : اتجاهاً روحياً يرفع من شأن معنويات الحياة، واتجاهاً يعلى من مادياتها . وقد بنيت على الاتجاه الأول حضارات ثم بادت ، وورثتها حضارات تجرى فى الاتجاه الثانى . ولكنها تشعر دائماً، بأن الاتجاه القديم يهددها ، فهى فى أشد الحاجة إلى أن تفعل كل ما فى وسعها لتخنقه . . والصهيونية الاستعمارية هى المادية التى تكره غاية الكره أن يكون فى الشرق روحانية . ولذلك فهى تطارده وتقمعه . وما الاستعمار إلا استغلاله، وقتل كل ضجة من ضجات الروح فيه . ولكن هذا الصراع القديم المتجدد، صراع الروح والمادة ، محتوم النتيجة ، معلوم الغاية، فالغلبة فيه للأقوى،وليس ثمة شىء أقوى من الروح . . تغلب حيناً، ولكنها لا تغلب إلى الأبد . . .

٥

أخى المواطن :

لم تكن مصادفة محضة ، أن يكون قبيل الثورة العرابية فى الحكم فى إنجلترا اللورد دزرائيلى ، وأن يكون على رأس الوزارة الفرنسية فى نفس الوقت جامبتا ، وكلاهما إسرائيلى ، وأن تكون خيوط السياسة العالمية فى يد المالى الإسرائيلى روتشيلد ، واجتماع الثلاثة على حلبة السياسة ، كان يؤدى حتما إلى التدخل العسكرى المسلح فى مصر ، الذى مهد للاحتلال البريطانى الذى دام اثنين وسبعين عاماً ، وقلت إن دزرائيلى وجامبتا وروتشيلد ، من المؤمنين بالصهيونية العالمية فليسوا هم مجرد إسرائيليين .

وقد بينا ، كيف كان التعاون وثيقاً بين عمل هؤلاء الثلاثة ، وأحب أن أبين لك كيف كان تدخل جامبتا ، فى الشئون الداخلية المصرية البحتة ، تدخلا درست مقدماته ونتائجه ، قبل الإقدام عليه . وأن هدفه الواضح المباشر ألا تقوم فى مصر ، حكومة وطنية ، تستند إلى الشعب ، لأن قيام حكومة من هذا الطاز يهدد ، الاستعمار الغربى كله الذى يسنده روتشيلد وأمثاله

ممن يعتـــبرون الأمم مجرد أسواق ، وأن حقوق الشعوب لا تزيد عن أن تكون سلعة ، توزن لا بقيمتها فى ذاتها ، إنما بقدر ما تزيد أو تنقص ، فى قيمة الأسهم والأوراق المالية .

وقد قامت فى مصر سنة ١٨٨١ حكومة وطنية يرأسها شريف ويسندها الجيش بزعامة أحمد عرابى ، وكانت الحكومة قد دعت مجلس النواب للانعقاد ، بعد انتخابات جرت فى جو من المودة والوئام القومى ، فانعقدت جلسته الأولى فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، فعد المصريون انعقاده عيداً قومياً ، لأن الحكومة والجيش والشعب ، بدأوا فى ذلك اليوم كتلة واحدة ، لا يفرقها مفرق ، وتقدم شريف باللائحة الأساسية ، أى الدستور ، وشرع النواب يدرسونها . . كان كل شىء يبشر بأن الاستقرار قد عاد إلى البلاد ، وأن عهداً من الإنتاج ، وللعمل المثمر ، سيشرق فجره ، ولكن الماليين الأوروبيين كان صوابهم يكاد يطير ، كلما شعروا بأن الفوضى بدأت تنحسر موجتها ، وأن إرادة الشعب أخذت ترتفع رايتها ، فأسرع الماليون إلى جامبتا ، فإذا هم يجدون عنده ، مثل ما عندهم من الهم والخوف ، فيتفقان على أنه لا بد من قذيفة تنطلق فى وسط هذا الجو الهادئ الصحو ، وانتهت مداولاتهم ومشاوراتهم ، إلى وجوب إرسال مذكرة إلى الخديو ، تفيض تهديداً للحركة الوطنية ، وتحرك

بواعث التفرقة بين الخديو والشعب ، بتأكيد حماية الأجانب للخديو ، ولاستبقاء سلطته فى يديه .

ويقول مستر بلنت فى صدد هذه المذكرة التى أرسلت فعلا فى الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ :

« والواقع أن المذكرة كتبت فى كيه دورساى (أى وزارة الخارجية الفرنسية ، ولخدمة المطامع الفرنسية . . . فقد كان جامبتا فى ذعر من أن يتحد العالم الإسلامى أمام الثورة التى قامت فى تونس والجزائر ضد فرنسا ، وكان هو على ارتباط بالدوائر المالية العليا ، روتشيلد وكبار الماليين » .

ويقول مستر بلنت فى موضع آخر :

« إن غزو تونس جعل شمال أفريقيا بأسره يشتعل ثورة ، فجاء جامبتا وهو عازم على أن يستخدم أشد الإجراءات لأنه كان يخشى أن تقوم ثورة إسلامية عامة ، لذلك رأى فى الحركة القومية المصرية ، مظهراً جديداً للتعصب الإسلامى كما أنه لأصله اليهودى كان على صلات بالمصالح المالية العليا المتعلقة بمصر ، فعوّل على أن يسعى لعرض التدخل الأجنبى فى مصر ، ومن ثم كان راغباً فى أن تشترك معه حكومة بريطانيا فى حركة صليبية ضد الإسلام ، باسم المدنية » .

وهذه السطور وحدها كفيلة بأن تريك عناصر المؤامرة دائماً

وأسلوبها وهدفها ، فالاستعمار يرى نفسه وحدة ، ويرى الوطنية وحدة كذلك ، ففرنسا حينما تجد حركة وطنية فى مصر ، تفهم بالغريزة ، أن نجاح هذه الحركة معناه تأييد للحركة الوطنية فى تونس ومراكش ، فلا تقنع بأن تضرب الحركة فى تونس ومراكش ، وإنما تعمل على أن تضرب الحركة الوطنية خارجهما ، ولا تقنع بأن تقوم هى بهذا العمل وحدها فتسعى إلى أن تضم معها وإليها إنجلترا ، ومن خلف هذا المسعى كله ، ترى دائما الماليين ، والماليون الذين هم من طراز روتشيلد بصفة خاصة ، وتلقى اللورد جرانفيل ، وزير خارجية بريطانية ، اقتراح المسيو جامبتا ، بالترحيب والتأييد ، وأرسلت المذكرة إلى الخديو توفيق وإلى رئيس الوزراء شريف باشا فى الثامن من يناير سنة ١٨٨٢ كما قلت لك ، وقد جاء فيها ، ما يستحق أن يتلى ، فقد جاء فيها مثلا :

« إن الحكومتين الفرنسية والبريطانية على تمام الاتفاق فى هذا الصدد ، وإن الحوادث الأخيرة ، وبخاصة الأمر الصادر من الخديو باجتماع مجلس النواب ، قد هيأت الفرصة لتبادل إنجلترا وفرنسا مرة أخرى الآراء فى هذا الشأن ، فأرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية والإنجليزية تعتبران أن تثبيت الخديو على العرش طبقاً لأحكام الفرمانات التى قبلتها

الدولتان رسمياً هو الضمان الوحيد فى الحال والاستقبال لاستتاب النظام ولتقدم سعادة مصر ورفاهيتها التى تهم فرنسا وإنجلترا » .

إن الاستعمار يعرف بالضبط خلف من يحتمى ، ولم يكن ثمة أفضل من الخديو فى ذلك الوقت ، ليقف الاستعمار خلفه ، وليقذف بسهامه عن قوسه .

هذا بعض ما فعله جامبتا فى سبيل وأد الحركة الوطنية المصرية ، وتشتيت صفوفها ، وفى الحديث الماضى ذكرنا ما فعله دزرائيلى ، بشرائه أسهم حكومة مصر فى قناة السويس البالغ عددها ١٧٦ ألف سهم و ٦٠٢ من الأسهم بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات ، وكيف أنه بمساعدة روتشيلد المالى الصهيونى قد دبرا ثمن هذه الصفقة فى غيبة البرلمـــان البريطانى وبغير موافقته .

وأحب أن أروى لك ، كيف نقلت هذه الأسهم الغالية من مصر إلى بريطانيا ، فإن ذلك يريك كيف يجمع الاستعمار عناصر حملته على بلد ينتوى الوثوب عليه .

بدأت الحكومة البريطانية باشتراط عدم دفع الثمن إلى مصر إلا بعد تسلمهم الأسهم نفسها ، فأمر الخديو إسماعيل ، الذى باع هذه الأسهم ، بتسليم القنصلية البريطانية هذه الأسهم جميعاً مودعة فى سبعة صناديق ، وتم التسليم فى القنصلية بعد أن

بصمها إسماعيل باشا المفتش وزير المالية بخاتمه ثم بصمت بخاتم القنصلية البريطانية ومحكمة القنصلية، وكانت الحكومة البريطانية فى لهفة على وصول هذه الأسهم إلى لندن ، فأمرت الأميرالية البحرية البريطانية الباخرة (ملابار) القادمة من الهند أن تعرج على الإسكندرية ، فلما وصلت الباخرة إلى قناة السويس، استقل الجنرال ستانتون قنصل بريطانيا قطاراً خاصاً من القاهرة إلى الإسكندرية ومعه الصناديق السبعة التى احتوت الـ ١٧٦ ألف سهم ،وكانت قد فرغت فى أربعة صناديق كبيرة من الزنك، وعند وصول الباخرة سلمت هذه الصناديق إلى قومندان الباخرة، ولما وصلت إلى ميناء بورتسموت تسلمها مندوب كبير من الخزانة البريطانية نفسها . . .

هذا جانب من الثورة العرابية لا يجب أن نغفله . يجب ألا ننسى دائماً أن السياسة فى خدمة الاقتصاد ، هو السيد الآمر ، وليست سوى الخادم المطيع ، الذى وهبه الله أو الشيطان قدرة على التشكل والتلون ، والانحناءِ والالتواء ، لم توهب لسواه . فالاقتصاد حينما يحتاج لأمر يوحى للسياسة أن تختار الاسم والثوب اللذين تضفيهما عليه . فهى أحياناً تدافع عن حقوق الشعب ، وهى أحياناً أخرى تدافع عن حقوق الملك ، وهى تارة تدافع عن الفقراء ، وهى أخرى تدافع عن أموال الأغنياء ، وهى فى كل

حين تجد الجرأة والقدرة ، على أن تبدى دفاعها ، كأنه صادر فعلا من أعماق القلب ، ذلك لأنه صادر من أعماق الجيب ، وفى كثير من الأحيان يلهم الجيب ويوحى ، مثلما يوحى ويلهم القلب .

هناك جانب آخر ، أهمله المؤرخون فى بيان أسباب الثورة العرابية ، أو على الأقل أهملوا بيان شأنه فى تجمع أسباب هذه الثورة ، وجدير بنا ، ونحن نراجع تاريخنا ، لنراجع حاضرنا ونقيمه على أسس سليمة قوية ، أن نراجع هذا الجانب الآخر .

وأعنى به الحملة الحبشية وأثرها فى ضم صفوف الفلاحين إلى الجيش المصرى وفى تثبيت إحساس المصريين بتغليب العناصر الأجنبية عليهم وفى خلع هيبة الخديو إسماعيل ونظامه من أنفسهم .

لقد أنفذ الخديو إسماعيل حملة ، على رأسها الجنرال ستون ، إلى الحبشة . وكان إنفاذ هذه الحملة صورة نموذجية للتفكير الملكى ، فى كل عصر ، فقد أنفذت هذه الحملة ومصر غارقة فى ديونها ، وكان الأجانب يوسعون رقعة نفوذهم المستتر المتوارى باسم هذه الديون .

وقد كانت الهزيمة أمراً متوقعا وقد هزمت فعلاً هذه الحملة ، وتكبدت البلاد خسارة فى المال والأرواح والعتاد فادحة ، وعاد الجيش يحمل معه جراثيم الثورة التى بقيت مع الجنود الفلاحين حتى ٢٣ يوليو

سنة ١٩٥٢ . أقول ذلك ولا أهزل ، فإن الثورات ،أو على الأقل فكرات الثورات ، تتوارث كما يتوارث الناس الصفات والمواهب والخصال .

عاد المصريون ،جنوداً ،وضباطًا ، والسخط يملأ نفوسهم فقد أدت الضائقة المالية إلى تخفيض الأجور والمرتبات ،فلم يعانِ من هذا التخفيض سوى المصريين دون غيرهم من ضباط الجيش وجنوده. هنا قامت الوحدة بين الضباط المصريين والجند المصريين ، وشعروا جميعاً بأنه لا نجاة لهم إلا أن يكونوا شيئاً واحداً .

ولقد كشفت حملة الحبشة لهؤلاء الضباط ، ما كشفته حملة فلسطين فى سنة ١٩٤٨ لأبنائهم من ضعف القيادة ، وضعف النظام كله ، وخلوه من العقيدة التى تسيره فعجل ذلك بقيام الثورة .

فما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أكمل التاريخ المصرى الحديث ! فإنه يكمل بعضه بعضاً ... يبدأ الآباء ، ويثنى الأبناء ، والأمل أن يرث الأحفاد وطناً قويًا ، خالياً من شوائب الضعف ، وآفاته قادراً على حمل رسالة القوة ، كأقوى ما يكون أبناء الوطن .

٦

أخى المواطن :

لقد عرفت كيف دبرت الصهيونية التدخل الأجنبي المسلح فى مصر ، وكيف تعاون روتشيلد وجامبتا ودزرائيلى ، وثلاثتهم من الصهيونيين ، على الدفع بالسياسة الإنجليزية الفرنسية ، إلى الوجهة التى تجعل الاحتلال العسكرى لمصر عملاً حتمياً ، لا فرار منه . فلقد جندت الأقلام والصحف ، ووكالات الأنباء لتصور الحركة العرابية كحركة تعصب بربرى ، تهدف إلى القضاء على الأجانب ، وذبح المسيحيين ، ولقد حارت حملة الطعن والتشهير ، فى النيل من أحمد عرابى ، فهى حينما ترى اجتماع الشعب حوله ، ومناداته بحرية المصريين ، تقول إنه إسبانى ، تبنى قضية مصر وأخذ على عاتقه الدفاع عنها ، وإن الشعب المصرى الذى طال الحكم الاستبدادى عليه ، عقم فلم يعد فى مقدوره أن يلد زعيما قوياً ، مؤمناً بنفسه وبأمته ، كما كان أحمد عرابى .

وهى حينما تراه مصمماً على أن يضيق الخناق على الحكم الاستبدادى القاسى ممثلاً فى شخص الخديو ، وبالتالى على الوقوف فى وجه أطماع الرأسمالية الأوربية رموه بالجهل،وبكراهية التقدم،وبالتعصب الأعمى، ولكنه فى الحالين ، كان يلقى فى قلب الاستعمار الخوف والهلع ، لأن هذا الاستعمار كان قد فرك يديه سروراً وفرحاً ، حينما عزل الخديو إسماعيل ، قبل أن تشب الحركة الوطنية الشعبية عن الطوق، فقد كان أملهم فى ضعف الخديو توفيق ، وتردده وتذبذبه وخوفه من المصريين ، وشدة تهافته على سلطان العرش . . وكان أملهم فيه عظيما ، وكان الخطر المحدق بهذا الأمل واكتماله ، هو استقرار الزعامة العرابية .

ولكن لا تظن يا أخى المواطن ، أن الحركة الوطنية التحريرية كانت شخص عرابى وحده تنبعث منه ، وتعتمد عليه وتتحرك به ، فمصر وعرابى فى هذه المرحلة ، كانت كالصوت والصدى ، والشخص وصورته فى المرآة ، فقد كانت مصر قبل الثورة العرابية تضطرم بحب الحرية ، وبالطموح إلى المجد ، وقد حاولت أن تحقق ما تاقت إليه ، وما طمحت له ، فى عهد الحملة الفرنسية ، وقبيل عهد محمد على ، وفى عهده ، ففعلت الأعاجيب فى فترة صغيرة من الزمن لا تزيد عن تسع سنين .

فى هذه الحقبة التى لا تتجاوز عمر صبى هزمت الغزاة الفرنسيين وضيقت عليهم الخناق ، وألجأتهم إلى الفرار ، بين سنى ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، وعزلت والى تركيا وألقت على كاهلها نير الاستعمار العثمانى فى سنة ١٨٠٥ وألقت بالإنجليز فى رشيد سنة ١٨٠٧ ، وهى أعمال لا تصدر عن شعب عقيم ، خانع ، ولولا أسلوب الحكم الذى انتهجه محمد على ، لاطردت غزوات وفتوح هذا الشعب الماجد الأبى الخلاق .

ففترة محمد على لم تكن إلا تأجيلاً لكفاح الشعب ، استكملت خلالها مصر ، كيانها كدولة .

فكان حتماً إذن أن يعود الشعب إلى المسرح وأن يستأنف ما بدأه فى السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

فثورة عرابى ، ليست إلا تجديداً لكفاح المصريين ، وحلقة جديدة فى سلسلة نضالهم الذى استمر حتى بلغ مرحلة عظمى من مراحله فى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ثم استرسل فى ميادينه التى فتحت أبوابها له ، وكانت حراماً عليه .

* * *

لقد درجت الكتب ، ودرج الكتاب ، على أن يتحدثوا فى الثورة العرابية عن كل شىء إلا دور الشعب المصرى ، فهم

يتحدثون عن مقدمات الثورة وأسبابها وعن يوم عابدين الذى اجتمع فيه الجيش ومن خلفه الشعب فى خلال سنة ١٨٨١ ، يوم أن أعلن عرابى ، أن الشعب ليس ميراثاً أو عقاراً ، وأن المصريين لن يورثوا بعد اليوم ، ويتحدثون عن حرق الإسكندرية وضربها وعن التل الكبير والهزيمة فيه ، وتبحث عن الشعب فى هذا كله ماذا فعل ، وبأى شىء ساهم ، هل كان يشاهد ويتفرج ؟ هل كان يساعد ويتطوع ويتبرع ؟

والجواب على ذلك يأتينا من الأجانب ومن عرابى نفسه . .

أما الأجانب كالسويسرى جون نينه ، وكالإنجليزى بلنت ، فقد افتنا فى تصوير صورة رائعة ، لشعب مؤمن ، قوى الشكيمة ، حارب فى ظل أسوأ الظروف وأتعسها ، بلا سلاح ، أو عتاد ، أو خطة سابقة ، ومع ذلك احتمل واستبسل . أما عرابى ، فحسبك أن تسمع منه .

« قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خزانة الحكومة درهم لأن المراقب الإنجليزى المستر كلفن أخذ الأموال من خزينة المالية وأنزلها فى الدونمة الإنجليزية (الأسطول البريطانى) قبل إعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى ، وقد حملها أعضاء قومسيون الصندوق إلى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها .

« وبناء على ذلك تحرر فى المجلس العام إلى المديريات بتحصيل الأموال من الأهالى عن كل فدان عشرة قروش ، ومن شاء أن يتبرع بشىء إعانة لإخوانهم المجاهدين فى سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم يقبل منه مع إعلان الشكر . ولما أعلن ذلك للعموم جادت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلها بالمال والغلال والخيل والجمال والأبقار والجواميس والأغنام والفاكهة والخضراوات حتى حطب الحريق .

« ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ومنهم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه ، وبالجملة فإن الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد فى القرون الخالية ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها » .

وقد نقل الأستاذ محمود الخفيف فى كتابه عرابى الزعيم المفترى عليه كتاباً أرسله من منفاه إلى صابونجى صديق المستر بلنت الكاتب الإنجليزى الذى كان على صلة بعرابى والعرابيين وقد جاء فى هذا الكتاب :

« أرجو أن تذكر صديقنا مستر بلنت فضلاً عما كتبناه إليه

بتاريخ ١٥ الحالى (يولية سنة ١٨٨٣) أن جميع النفقات التى لزمت هى مائة ألف جنيه مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد . فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى ولا أكثر من ألف ومائتى حلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة . ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عدل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما تزيد قيمته عن مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك قدم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها . ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » .

تأمل فى هذه العبارة الأخيرة ، تتبدى لك الثورة العرابية ، فى ثوب آخر ، وتفهم الحرب التى قامت بين مصر وبريطانيا فى سنة ١٨٨٢ فى ضوء جديد .

فالثورة كانت ثورة شعب ، بكل ما فى كلمة شعب من معنى . شعب بجميع طبقاته وأفراده ، بكل طوائفه ، على اختلاف مراكزهم وعقائدهم ونزواتهم . يقفون جميعاً ، طواعية وبلا إكراه ، خلف مثل أعلى ، يؤمنون به ، ويعملون على تحقيقه .

وأى شعب هذا الذى يفعل ذلك ؟ شعب أثقلته ديون الأسرة

المالكة ، واجتمعت عليه دسائس الدول . واختلطت بين صفوفه أجناس شتى ، كل منها يبحث له عن مأرب ، شعب لم يكن يعرف من الحياة إلا السخرة ، والحروب التى يلقى إليها كحطب الفرن ، لا يعلم لها غاية ، ولا يدرك لها سبباً .

شعب يقف ملكه فى جانب ، وقائده فى جانب ، ويعبث به وبعقائده ، باسم الفضائل حتى أوشك أن يكفر بها جميعاً ، لولا عراقته ، وأصالته ، وثباته فى وجه الأحداث والمحن

شعب يحارب ، وخزانته التى اجتمع فيها المال ، من عرقه ، ودمه ، ينهبها أعداؤه حتى لا يجد قوت يومه . . .

هذا الشعب هو مجموع آبائنا الذين صورهم لنا التاريخ الزائف ، ضعفاء ، جبناء مترددين ، هذا الشعب ، هو نحن ، فلنثق به وبأنفسنا .

قد تحمل كلام الزعيم أحمد عرابى ، على محمل المبالغة أو المباهاة التى يضطر إليها الزعماء اضطراراً . ومن ثم وجب أن نقرأ ما يقوله الشيخ محمد عبده ، ولم يكن على اتفاق كامل مع زعماء الثورة العرابية . بل إن الأمر بينه وبينهم انتهى إلى ما يشير إلى الخلاف الصريح . اقرأه يقول فى خطاب أرسله من السجن إلى مستر برودلى المحامى الذى ترافع عن عرابى أمام المحكمة العسكرية الخاصة التى شكلت لمحاكمته :

«هل يقدر أحد أن يشك فى كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان ؟ فكان يتألب المسلمون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحماسة غريبة وبكل ما أوتوه من قوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز . . . إنى لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه ، بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقال عرابى من منصبه (كوزير للجهادية أى الحربية) لأنه لم يمتثل أمره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز إتقاء لنزول الأعداء منها » .

٧

أخي المواطن :

لقد هزم الجيش المصرى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فى التل الكبير ، وقد بقيت هزيمته تكوى جباهنا ، بنار العار ، اثنين وسبعين عاماً . ولكن هذه النار ، استحالت مع الزمن من نار العذاب ، إلى نار التطهر ، نفت عنا جنة التهاون والاستسلام ، إن هذه النار هى التى أشعلت فى عروق مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، دماءهما ، فتدفقت تحمل إلى قلبيهما ، مدداً من الإيمان بمصر ، والإيمان بشرف النضال فى سبيلها .

وقد بقيت حقائق هزيمتنا ، مغطاة بأكداس من الأكاذيب والأوهام ، والدعايات ، حتى لم يبق من أبناء مصر من يعرف بالضبط أمرها . كانت أشبه شىء بموطن الذل ، لا يحب أحد أن يتجه إليه ، أو يقترب منه ، فاستغل خصومنا ، هذا ، فأشاعوا أن مصر ، كانت فى هذه الهزيمة ، مثلاً للأمة المهلهلة التى استسلمت لأول ركلة من قدم الأعداء ، وهذا كذب صراح ، فإن أبناء مصر مهما ادلهمت الخطوب ، وتحالفت

عليهم الكوارث يلمع منهم فى ظلام مصائبهم نور ، يعلن ان شمسهم لم تنطفئ ، وإنما حجبتها سحب كثيفة فى السماء .

* * *

لا يجمل بنا أن نفر من مواجهة هزيمة التل الكبير ، فإن حياة الأمم ، لا تمضى كلها انتصارات ، بل علينا أن نقف أمام هذه الهزيمة ، وأن نفكر فيها ، ونتأمل عناصرها ، لنعرف ما إذا كان مردها ، لعيوب أصيلة فينا ، أم لأسباب طارئة ، عارضة ، تشبه ما يطرأ على الجسم الصحيح القوى ، من علل وأمراض ، قد تضعفه حيناً ، ولكنها تزيد على الأيام مناعته .

يجب أن نقرّ أولاً ، بأن عدتنا فى الحرب مع الإنجليز ، كانت جيشنا . فهل كان جيشاً كبقية جيوش الأمم ، تتولاه الحكومة بالرعاية وتهيئ له أسباب القوة ؟ وهل وجد من يحنو على إذكاء روحه المعنوية ؟ لقد كانت الأسباب المباشرة لثورة عرابى وإخوانه ، التفرقة الجائرة فى معاملة أبناء الفلاحين ، وأبناء الأتراك والشراكسة فى الجيش المصرى . فقد كانت المراتب الكبرى وقفاً على الدخلاء والأجانب ، وكانت أعمال السخرة التى لا تمت إلى شرف الجندية بسبب ، مهانة خاصة لأبناء الفلاحين ، وليس ثمة أقتل للجيش فى أن تسوده روح التفرقة وأن يضمر الجندى الكراهية لقائده ، وأن يعلن القائد الاحتقار ،

لعساكره ، وقد مر بنا فى حديث سابق ، أن مما عجل بإشعال نار الثورة ، فى قلوب الضباط المصريين الذين قادوها فيما بعد ، ما رأوه فى حملة مصر على الحبشة ، من استئثار الضباط والقواد الأتراك ، بالمرتبات ، دون الضباط المصريين وجنودهم ، الذين حرمهم الارتباك المالى قبض رواتبهم ومكافآتهم ، وقد نجحت الثورة العرابية فى إنقاذ الجيش المصرى من القيادة التركية الظالمة الجاهلة ، وبدأت تنفخ فى هذا الجيش روحاً جديدة ، وقد كان هذا التحول خليقاً ، بأن ينشئ من الجيش المصرى قوة عسكرية ، كاملة يحسب لها حساب ، لولا أن أحداث السياسية الداخلية والخارجية ، تعاقبت فى سرعة ، حتى كانت واقعة التل الكبير فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، ثم أعقبها الاحتلال .

فمن المستحيلات ، أن تكلف الجيش المصرى ، الذى لم يكن يبلغ ثمانية عشر ألفاً من الجنود بحكم القيود الدولية التى فرضت على مصر ، والذى كان قلبه وعقله أجنبياً لا ينبض بشعور مصر ولا يفخر بالانتساب إليها ، ولا يفكر فى سعادتها ورفاهيتها ، بل من المستحيلات بأن تكلفه بأن يخوض حرباً ناجحة مع دولة كبريطانيا ، كانت بلا جدال فى ذلك الحين ، أغنى دول العالم ، وأوسعها رقعة ، وكانت فى الوقت نفسه ، أكبر

قوة استعمارية ، مرنت على العبث بالأمم وتفتيت قواها بالدسائس وبث الفتنة .

لم تكن الروح المعنوية ، وحدها ، هى التى تنقص هذا الجيش ، ولم تكن قلة عدده هو العجز الوحيد الذى كان يشكو منه ، فإن موارده كانت أقل من أن تعينه على منازلة الإنجليز ، فقد أغلق الاستعمار والطغيان والإسراف ، أبواب المصانع الحربية ، فأصبح الجيش المصرى عالة على أوربا ، يستورد منها كل ما يلزمه من سلاح وذخيرة وعتاد . فلم يكن والحال هذه فى مقدور أحمد عرابى ، أن يزيد من سلاح الجيش ، لأن باب هذه الزيادة مقفل فى وجهه للأسف الشديد .

وقد تسأل ، ومن حقك أن تسأل ، كيف لا تكون معنوية الجيش المصرى ، الذى حارب الإنجليز سنة ١٨٨٢ ، فى أعلى مراتبها ، وهو يخوض حرباً وطنية ، ضد غاصب أجنبى ، وكيف يتفق القول بضعف معنوية الجيش المصرى مع ما حدثتكم عنه فيما سبق ، من اشتعال مصر كلها حماسة وغضباً ضد الإنجليز ، ومع ما ذكرته من تسابق مصر إلى التبرع بالأقوات والغلال والثياب والعتاد ، للجيش المصرى حتى بلغ مجموعها أكثر من مليون من الجنيهات كانت مصدر الجيش والحكومة ، فى الإنفاق على الحرب بعد أن خلت خزائنها من

كل مليم ، بعد أن سطا المستر كلفن مراقب وزارة المالية الإنجليزى على هذه الخزائن ، فنقل ما فيها من مال إلى الأسطول البريطانى الذى كان راسياً فى مياه البحر الأبيض .

ولكن فى الواقع كان هنالك فرق شاسع بين تحمس الشعب للدفاع عن شرف بلاده ، واستعداده للتبرع ، وبين معنوية الجيش المقاتل . ذلك لأن الجندى الذى يطلب منه أن يجود بدمه وأن يحتمل أقسى المشقات وأن يكابد أفدح التضحيات ، يحتاج لشىء أكثر من الحماسة العامة ، لكى يثبت قدمه ، فلا يزيغ بصره ، ولا يهن إيمانه ، لابد أن يكون متبيناً الهدف الذى يحارب فى سبيله ، وأن يكون مدركاً القضية التى يدافع عنها ، وأن تكون لديه مناعة ضد دعاوى دعاة التردد والهزيمة ، فإن سمع منها شيئاً أصم أذنيه عنها ، ومضى فى طريق الكفاح ، لا يلوى على أحد . ولذلك تبذل الأمم الملايين على إعداد الجيش مادياً ، وتنفق المليارات لإعداد الجيش معنوياً ، وهى لكى تنجح فى الإعداد ، تبدأ به فى المدرسة ، والمنزل ، ثم تتابعه فى الطريق والمعبد ، فليس كافياً أن تقول للجندى داخل الثكنة ، إنه يحارب فى سبيل بلده ، بل يجب أن تردد هذا على أذنه ، وهو بين أفراد أسرته ، وهو يطالع صحيفته ، وهو يتناول طعامه ، وهو يتسلى فى المسرح والملهى .

ولقد كان من سوء طالع الثورة العرابية ، أن الحرب دهمتها قبل أن تنفسح لها فرصة التربية القومية ، فقد بدأت الثورة فى أخريات سنة ١٨٨١ ، وشبت الحرب فى منتصف السنة الثانية ، وقد عجل الإنجليز بالهجوم على مصر فى يولية سنة ١٨٨٢ لأنهم أدركوا أن كل وقت يمضى على الثورة ، إنما هو تثبيت لجذورها وتمكين لعقائدها ، وتعليم لأبناء مصر ، وتلقين لهم .

ولا بد أن نذكر الظروف التى ولدت فيها الثورة . ولدت الثورة وليس هناك مثل أعلى واضح للمصريين . فالدعوة إلى الإصلاح الدينى ، تستأثر بألباب بعض الناس ، والدعوة إلى الإصلاح الدستورى تستهوى فريقاً آخر ، والحديث عن القومية المصرية يتردد ضعيفاً ، على ألسن فريق ثالث ، ومن هنا انفسح المجال لعبث الأعداء وفتنهم ، فقد كان الإنجليز يضربون الشعب المصرى باسم الخديو ، ولى الأمر ، الذى أقامه على البلاد خليفة للمسلمين .

انظر مثلاً إلى البلاغ الذى أذاعه الجنرال ولسلى فى التاسع عشر من أغسطس إلى المصريين :

« بأمر الحضرة الخديوية، يعلن الجنرال قائد الجيوش الإنجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى إرسالها تجريدة عسكرية إلى القطر المصرى ليست إلا لتأييد سلطة الحضرة

الخديوية وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه ».
فالإنكليز هنا يتكلمون هنا باسم الخديو ، فإذا قلنا إن الخديو فقد فى نظر الشعب مكانة ولى الأمر لانحيازه إلى جانب الأعداء فماذا نقول فى محمد سلطان باشا ، الذى كان رئيساً لمجلس النواب ، والذى ناصر الحركة العرابية ، وقتاً حتى استحق أن يسمى « بأبى المصريين» ؟ ماذا نقول فى أنه أصبح رسول الخديو إلى الضباط المصريين ، يغريهم بالنكوص ، ويحرضهم على التمرد ويمنيهم بحسن العاقبة ، إذا هم انحازوا للخديو ، وتركوا عرابى ؟ لا شك أن محمد سلطان وأمثاله من أعيان المصريين ، لم يكونوا ليتذبذبوا هذا التذبذب لو لم يكن الخديو عدوًّا للمصريين ؛ ولم يكن الخديو ليجرؤ على مجاهرة المصريين بهذا العدوان ، إلا لأنه كان يطمع فى أن يصدر الخليفة — أى سلطان تركيا — إعلاناً بأن أحمد عرابى عاص لدولة الخلافة ، وقد حدث هذا فعلا ، فى السادس من سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، أى قبل وقعة التل الكبير بأسبوع ، وقد جاء فى هذا الإعلان : « أن الدولة العلية السلطانية ، تعلن أن وكيلها الشرعى بمصر هو حضرة فخامة دولة محمد توفيق باشا وأن أعمال عرابى باشا كانت مخالفة لإرادة الدولة العلية ، ثم التمس من جانب الخديو العفو فعفا عنه ، ونال أيضاً من الحضرة السلطانية العفو العام ، وإن الشرف الذى

ناله أخيراً من الحضرة العلية السلطانية إنما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الأعظم، وقد تحقق الآن رسمياً أن عرابي باشا رجع إلى زلاته السابقة واستبد بالعساكر بدون حق فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لا سيما أنه تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية » .

فأنت ترى من هذا كيف تداخلت المثل العليا فى الثورة العرابية تداخلا يبطل بعضها بعضاً، إذ استغل الإنجليز كل فضيلة، ليفتتوا الوحدة المصرية، فاسم الخلافة، واسم ولى الأمر، واسم الدستور ، تعمل كلها فى جبهة ، ويعمل الفلاح المصرى وحده برياسة أحمد عرابى فى جبهة عزلاء من السلاح ، ومن المال ، ومن التحضير السليم الصحيح ، الذى يحتاج لفسحة من الوقت ، وتعاون بين العناصر. فليس إذن تجنياً على الواقع ، ولا تشويهاً له إذا قلت إن معنوية الجندى المصرى ، الذى كان يحارب دفاعاً عن بلاده أمام الإنجليز ، لم تكن من القوة إلى الدرجة التى كان يتطلبها حرج الموقف ، وشدة تألب الأعداء . ولو اتسع الوقت للثورة العرابية ، لقضت على الأوهام والأكاذيب ، التى كانت تثار تارة باسم الخلافة وأخرى باسم الخديو ، وأخرجت للناس ثقافة وطنية ثورية موحدة ، لجمع الصفوف ، وسد الثغرات فى وجه الأعداء .

ولا تظن أن هناك أمة من الأمم ، تؤمن بأى مثل أعلى ، فى يوم وليلة ، فإن الأمم ، كالأفراد ، تحتاج إلى الإلحاح فى الدعوة وكثرة ترديدها ، وتحتاج إلى التذكير بها وقت الشدة ، ووقت الرخاء حتى تثبت فى نفسها ، فإذا غشيتها بعد ذلك غاشية من المحن استطاعت أن تثوب إلى إيمانها وأن تستمسك به .

ولو نظرنا فى تاريخ الأديان ، لوجدنا أن المؤمنين الأوائل ، احتاجوا إلى حقبة غير قصيرة من التربية ، يتلقونها على يد الرسول نفسه ، ثم يتعرضون مع ذلك لمحنة الشك ، المرة بعد المرة ، حتى يثبتوا آخر مرة .

وإن أردت المثل ، على الفرق بين المقاتل الذى درب ، وتلقى تحضيراً معنوياً ، وبين من لم يسعفه الحظ بمثل هذا التدريب والتحضير ، فاقرأ ما يقوله أحمد عرابى نفسه فى مذكراته المخطوطة ، فى وصف ما أصاب الناس بعد وقعة التل الكبير ، يقول :

« ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحماً بالخيل والجمال والعساكر مشتتين ومولين ظهورهم للعدو فذهبت إلى القنطرة التى على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو ، وأذكرهم بالشرف الإسلامى والعرض والوطن فما كان سميع أو بصير » .

ولكن لم يكن هذا حال الجميع ، فإن الضباط الذين لم تؤثر فيهم بلاغات خليفة ابن عثمان ولا دعاوى محمد سلطان، ولا رشاوى محمد توفيق ، استطاعوا أن يسجلوا صفحة من أشرف ما انطوى عليه تاريخ الكفاح من أجل الأوطان على مر الحقب ، نعم استطاع محمد عبيد وأحمد فرح وعبد القادر عبد الصمد ، وحسن رضوان أن يثخنوا الأعداء جراحاً ، وأن يدفعوا عن بلادهم ذل العار.

٨

أخى المواطن :

لقد هزمنا الإنجليز فى التل الكبير سنة ١٨٨٢ كما حدثتك ، ولكن لم يكن ذلك لنقص فى رجولتنا ، أو لضعف فى وطنيتنا ، أو لخور فى عزيمتنا ، وإنما للأسباب التى ذكرت لك أكثرها .

قلت لك إن هزيمتنا قد جاءت بعد قتال مشرف ، كانت فيه مواقف للشعب وللجيش معاً تؤكد أن مصر ، دائماً ، حينما تجتمع لها زعامة ، مؤمنة مخلصة ، تستطيع أن تثب إلى القمم العالية .

وقد أنشر عليك صفحات من هذا القتال المشرف .

ولقد بدأت صفحات هذا القتال ، بوقفة الجيش والشعب ، فى معركة ضرب الإسكندرية فى ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وبدأت مقدمات هذه المعركة حينما طلب قائد الأسطول البريطانى فى ١٠ من يولية سنة ١٨٨٢ ، من قائد الطوابى المصرية بأن يسلم له مدافع هذه الطوابى ، وإلا فإنه سيضرب المدينة .

فردت الحكومة المصرية على ذلك الطلب الذى كان مفتتح

القتال بين الأسطول البريطانى بقطعه الضخمة العديدة ، وبين الإسكندرية العزلاء ، قالت الحكومة :

« نحن هنا فى وطننا وبيتنا فمن حقنا ، بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الإنجليزية إنها باقية بيننا. ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح » .

أخذ الأسطول البريطانى فى الساعة السابعة من صباح يوم ١١ يولية ، يمطر طوابى المدينة القديمة التى لم تمتد إليها يد التعمير أو الإصلاح أو التسليح منذ أنشئت ، بقنابله ، وكان حماتها المدافعون عنها ، يعلمون أن مايخوضونه ليس حرباً ، وإنما هو مجزرة يذبحون فيها ، ومع ذلك لم يتردد واحد منهم ، عن القيام بواجبه غير طامع فى الحيــاة ولا ساع للنجاة . ولست أمل من أن أردد على مسامع إخوانى الشبان هذه الصورة الرائعة التى رسمتها ريشة الكاتب السويسرى جون نينه قال :

« ما أبدع هذا المنظر ! منظر الرماة المصريين ، الذين كانوا قائمين على مدافعهم ، وهى مكشوفة فى العراء ، وكأنهم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم ، إذ لم

يكن لهم دروع واقية ، ولا متاريس ، وكان معظم الحصون بلا ساتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من أبناء وادى النيل ، كما نلمحهم وسط الدخان الكثيف، كأنهم أرواح الأبطال الذين سقطوا فى حومة الوغى، ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد، ويستهدفوا لنيران مدافعه » .

وإذا كان ذلك موقف المقاتلين فى الجيش ، فانظر كيف كان موقف أفراد الشعب: نقل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن الشيخ محمد عبده :

« كان الرجال والنساء تحت مطر القنابل ونيران المدافع ، ينقلون الذخائر ويقدمونها إلى بعض بقايا الطوبجية ، الذين كانوا يضربونها، وكانوا يتغنون بلعن الأميرال سيمور ومن أرسله » .

ونقل عن أحمد عرابى نفسه :

« وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات » .

ونقل عن محمود باشا فهمى فى كتاب البحر الزاخر :

« ورأيت فى ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيه ، وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر ، وخراطيش

البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الأهالى يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

قل لى بربك أيها المواطن العزيز ، ماذا تطلب من شعب ، أكثر من أن يواجه الخطر ، بلا خوف ، ودون أن تثنيه الهزيمة المحققة عن مواصلة القتال ، أو ترهبه قوة العدو وتفوقه فى السلاح ، وتحصنه فى أسطول ضخم ؟!

ماذا تطلب من أعرق الجيوش وأشدها علماً بفنون الحرب ، وأقدمها عهداً بالمعارك إلا أن تصمد لأهوال المعركة ، فلا تضطرب ويختلط حابلها بنابلها ولا تفر وتهيم على وجهها ثم تواصل عملها، فى مكانها ، وكأن الموت لا يحيط بها من كل جانب ، وكأن الإخفاق لا يتعقب منها كل خطوة ؟!

ولقد فعل مقاتلونا فى الإسكندرية كل هذا ، حتى تصور جون نينه الكاتب السويسرى أن من كان يواصل القتال من الجنود فى هذه الطوابى القديمة الخربة ، كان أشبه شيء بأرواح الذين استشهدوا وكأنما قد بعثت بعد الموت لتواصل القتال نفسه .

ظن الإنجليز بعد أن أشعلوا النار فى مدينة الإسكندرية بقذائف أسطولهم ، أنهم قادرون على أن ينحدروا إلى العاصمة فى غير عناء ولا جهد ، ولكن كانت للجيش المصرى وقفة فى كفر الدوار صدتهم وخيبت أملهم فى انتصار رخيص .

وعلى الذين تخجلهم هزيمتنا فى التل الكبير أن يعرفوا شيئاً عن كفر الدوار .

انسحبت حامية الإسكندرية بعد ضربها بمدافع الأسطول البريطانى فإلى أين تذهب ؟

قال محمود فهمى باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى وهو يستجوب فى السجن بعد إخفاق الثورة العرابية :

« توجهنا إلى كفر الدوار ، وطلعنا إلى المحطة ومنها إلى كنج عثمان ، وكان تقابل معنا حسن بك بن الشيخ عثمان فوجدنا هناك تلاً قديماً فسأل عرابى عن اسم هذا المكان فقال له حسن بك اسمه تل الناصر فالتفت إلى عرابى وقال إن ابتداء استحكاماتنا يكون هنا ، وأمرنى بإنشاء استحكامات وحرر يطلب العساكر وطلب الأنفار للعملية » .

واختيار هذا المكان المنيع ، على الفور ، يدل على فطرة عرابى العسكرية السليمة التى لم يكن ينقصها إلا تجارب حربية ، حتى تتفتح براعمها ثم تتوالى ثمارها .

ويقول بلنت فى الثناء على هذا الموقع :

« لم يكن فى وسع عرابى أن يصنع خيراً من اتخاذه هذا المكان مستقراً لمعسكره الجديد ، لقد كان بعيد بعداً كافياً عن مدافع سيمور ، ولم يكن يستطيع جيش مهاجم أن يبلغه إلا عن الطريق

الضيق الذى مهده خط سكة الحديد، وبهذا لم يمكن اقتحامه من جهة الإسكندرية فى حين أنه من جهة الأرض كانت الدلتا مفتوحة للجيش بإمداداتها التى لا تكل، وكان الجيش حر الاتصال بالقاهرة. وهنا استطاع الجيش أن يثبت أمام الإنجليز بنجاح نحو خمسة أسابيع ، يصد كل الهجمات ، بل يدفع العدو بهجمات مضادة إلى ما يقرب من أبواب الإسكندرية ولو لم يكن هناك باب آخر لدخول مصر غير كفر الدوار لظفرت الحركة القومية بنجاح».

هذه العبارة الموجزة التى نقلتها لك عن بلنت ، تقطر حقاً ، وهى توجز فى الواقع مأساة مصر ، فلقد صد المصريون، غزو الإنجليز ، عند كفر الدوار ، هذه الأسابيع الكثيرة فتحول الإنجليز إلى المنفذ المفتوح أمامهم ، وهو قناة السويس . والجانب الشرقى من مصر ، ولهذا التحول ولآثاره حديث سأفضى به إليك فى حديث آخر ، فهو جدير بأن نفرد له ، وللملابسات الدولية التى أحاطت بانتصار الإنجليز علينا فى الميدان الشرقى ، فصلا قائماً بذاته لا سيما أن ما وقع فى هذا الجانب الشرقى من بلادنا سنة ١٨٨٢ بقى يؤثر على حياتنا العامة . وحياتنا السياسية، ومركزنا الدولى ، حتى أبرمت اتفاقية الجلاء فى اكتوبر سنة ١٩٥٤، وسيبقى يؤثر على حياتنا العامة، وحياتنا

السياسية ، حتى تؤول قناة السويس إلينا ، وتنبسط عليها إرادة مصر كاملة غير منقوصة .

اختار عرابى نقطة جبل الناصر ، لتبنى عندها استحكامات الجيش ، بعد انسحابه من الإسكندرية ، وعهد إلى محمود فهمى باشا فى بناء هذه الاستحكامات . ومن حق محمود فهمى على أبناء الجيل الجديد أن يعرفوا اسمه ، وأن يعرفوا العمل الجليل الذي قام به ، وهو فى الحق ، جدير بكل إعجاب وتقدير من أبناء مصر : تخرج محمود فهمى من مدرسة المهندسخانة (كلية الهندسة) ونبغ فى الفنون الهندسية وقد رشحه نبوغه ، وتفوقه ، لمنصب أستاذ لعلم الاستحكامات العسكرية ، ثم عهد إليه فى عهد سعيد بتحصين شواطىء مصر الشمالية ، ثم اشترك فى حرب البلقان التى نشبت بين تركيا وروسيا سنة ١٨٧١ ، فأضاف إلى خبرته النظرية ، تجربة عملية فى الحرب ، إلى جانب تجربته العملية فى السلم ، فاكتمل له كل ما يلزم لتفتح عبقرية أصيلة ، اكتمل له حب الدرس ، وفرصة التجربة الهادئة فى السلم ، وفرصة التجربة فى ظل الشدة أثناء الحرب .

وقد أمر محمود فهمى ، بسد ترعة المحمودية التى تمد الإسكندرية بالماء ، فانزعج الإنجليز لذلك إذ أحسوا أنهم مهددون بخطر لا قبل لأسطولهم برده ، فأنفذوا حملة قوامها

نحو ألف مقاتل يقودهم جنرال، فلما بلغوا موقعاً لا يبعد عن خطوط المصريين بأكثر من كيلو ونصف كيلو ، تصدى لهم المصريون بقيادة البكباشيين أحمد البيار ومصطفى حسان وأوقفوا زحفهم أول الأمر ، ثم ردوهم على أعقابهم، ففروا مهزومين، وجدد الإنجليز هجومهم فى اليوم التالى، وقد أعدوا له عدة قوية على وجه شرحه الأستاذ محمود الخفيف فى كتابه القيم عن عرابى وهو يقول فى هذا الموضع :

« وثبت لهم المصريون ثباتاً خليقاً بالإعجاب حقاً، ودافعوا فى هذه المعركة دفاعاً مجيداً. وأبلى البكباشى محروس بلاء حسناً فى صد ميسرة الإنجليز ولم يمنعه جرحه الشديد من أن يشد عليهم برجاله، وكذلك أظهر البكباشى محمد فودة بسالة وجلداً عظيمين فى الهجوم على قلب الإنجليز وميسرتهم . وجاءه المدد بقيادة أحمد عفت وتعيلب وحجازى ثم جاء طلبة باشا ومعه فرقة الفرسان بقيادة أحمد عبد الغفار ، وبعد ست ساعات من القتال الشديد، ارتد الإنجليز منهزمين ولحق بهم المصريون ، حتى حجبهم الظلام عنهم .

« وأخيراً ثبت للإنجليز أن اختراق هذه الاستحكامات ، يكاد يكون ضرباً من المستحيل؛ وكان الخوف من امتناع الماء العذب عنهم، ومن احتمال قطع البحر عليهم ، وإغراقهم ، كما

أغرقهم المصريون من قبل فى سنة ١٨٠٧ ، يزيد فى معنويتهم ضعفاً ، فاستقر عزمهم على أن يغزوا مصر من جانب القناة ، وأن يدوسوا فى سبيل هذا الغرض ، حياد تلك القناة ، وكل ما تقضى به الاتفاقات الدولية التى وقعوا عليها ، والتزموا بها .

إذن لم تكن هزيمة التل الكبير ، لضعف إرادتنا فى القتال ، أو تزعزع عزمنا على مواصلته ، وإنما للأسباب التى أوردتها لك ، والتى لا يسأل عنها المصريون كشعب ، إلا بقدر ما يسأل الجسم السليم الصحيح ، الذى تتسرب إليه ميكروبات الأمراض عن إصابته بالمرض.

كان أول التحام بين المصريين والإنجليز فى ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ فى قرية المسخوطة، وقد سقطت هذه القرية كما سقطت نفيشة، ولكن المصريين هاجموا معسكر الإنجليز فى القصاصين فى الثامن والعشرين من أغسطس ، فأجلوا الإنجليز عن المواقع الأمامية ، واحتلوها ، وكف الإنجليز عن الهجوم بعد الهزيمة نحو أسبوعين، لأن سلاح الخيانة الذى أرادوا أن يضربوا به المصريين من الخلف لم يكن قد أثمر ثمرته بعد ، ولم يكن السلطان قد أعلن بعد قرار عصيان عرابى .

هجم المصريون على الإنجليز فى اليوم التاسع من سبتمبر ، فأخذ الإنجليز على غرة ، وكاد يقع دوق كنوت أسيراً ، وأبلى

اللواء على فهمى وراشد حسنى بلاء حسناً، إذ لم يخرجا من المعركة إلا بعد أن أصيبا بجروح أقعدتهما عن مواصلة القتال .

وحل يوم التل الكبير ، وكانت الخيانة قد أفرخت ، وكانت جبهة الإنجليز والخديو والسلطان قد التأمت وسد ما فيها من ثغرات، فأحيط بالمصريين من كل جانب ، ولكن بقى للشرف المصرى جماعة أبت إلا أن تموت ، وهى شاكية السلاح وإلا أن يمر الأعداء إلى حمى الوطن ، على جثمانها الهامد ، فأحاط الخلود هذه الأسماء بإطاره الباقى على الزمن . . نعم ، استشهد فى ذلك اليوم استشهاد الأبطال الأميرالاى محمد عبيد، وأحمد فرج ، وعبد القادر عبد الصمد ، وحسن رضوان، فلنحفظ أسماءهم ولننقشها على قلوب أبنائنا ، ليعرفوا أن مصر لا تتخلى عن الشرف حتى فى يوم الهزيمة.

٩

أخى المواطن :

السؤال الذى أود أن أطرحه عليك وأن أناقشه معك هو : هل كان يستحيل على الإنجليز أن يهزموا المصريين فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، لو لم تكن قناة السويس قد شقت ، أو لو لم تتردد قيادة الثورة العرابية ، فى ردم هذه القناة ؟ وسدها فى وجه الأساطيل الإنجليزية التى أنزلت جيوش بريطانيا ، على شاطئ القناة ؟ وهل أخطأ بالتالى عرابى وإخوانه إذ لم يبادروا إلى ردم القناة ؟

ولكى نستحضر معاً عناصر الموضوع ، أذكرك بما سلفت إليه الإشارة من أن الإنجليز عجزوا عن أن يخترقوا خطوط الاستحكامات التى أنشأها محمود فهمى رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى كفر الدوار ، وأن محاولاتهم التى بذلوها خلال خمسة أسابيع ، فى هذا السبيل ذهبت كلها سدى .

فاتجاه الإنجليز إلى الناحية الشرقية ، ومحاولة التسلل منها إلى بلادنا ، كان اتجاهاً مفروضاً عليهم ، ألزمتهم به هزيمتهم فى الجبهة الغربية .

ولقد أحس ديلسبس أن قناة السويس، ستلعب دوراً كبيراً ، فى المعركة بين مصر والإنجليز ، فوصل إلى الإسكندرية فى التاسع عشر من يولية سنة ١٨٨٢ ، أى بعد ضرب الإسكندرية، بثمانية أيام . ولم يفرح الإنجليز بمقدمه ، لأن فرنسا كانت خليقة بألا ترضى بانفراد إنجلترا بهذه الغنيمة الثمينة النفيسة ، لو كانت سياسة فرنسا فى ذلك الحين تفهم شيئاً ، أو تقدر على تنفيذ ما تفهمه . وديلسبس كان فرنسياً من ذوى العزم لا يتردد تردد وزراء فرنسا ، فكان من المحتمل كثيراً أن يوصى حكومة بلاده بشىء يعرقل مساعى إنجلترا ، وأخيراً كان ديلسبس رئيس مجلس إدارة شركة القناة ، وكانت القناة موشكة أن تصبح مسرح الجريمة الدولية ، التى تخوض بريطانيا أوحالها ، وكان بحكم ارتباطه الوثيق بهذه القناة ، قادراً على أن يحدث فى الموقف الدولى حدثاً ذا شأن لو أنه اعتصم بالعزم والإرادة .

وقد توقع ديلسبس ، أن يقوم المصريون بردم القناة ، وتوقع أن ينتصر المصريون ، وألا ينجح الإنجليز فى فتح مصر ، وتوقع أن تنطلق يد الحكومة الوطنية وقتذاك فى القناة ، بعد ردمها ، وتسترد الحقوق التى ضيعها الخديو على المصريين بسياسته الحمقاء ، أو على الأقل تثور صعاب جديدة فى وجه شركة القناة . لذلك حاول ديلسبس أن يمنع الإنجليز من أن ينزلوا جنودهم فى أية نقطة على

القناة، وهدد بأنه سيعطل القناة ، إذا خرق الإنجليز حيادها . والتعطيل الذى كان يقصده، ديلسبس شىء غير الردم . وقد شكت بريطانيا ديلسبس إلى حكومته على لسان سفير بريطانيا فى باريس. ولكن لم تضطر بريطانيا إلى تكرار الشكوى، فإن ديلسبس لم يفعل شيئاً جديًّا ليمنع خرق هذا الحياد ، ولأن الأسطول البريطانى احتل مدخل القناة عند السويس وبورسعيد بقيادة أميرى البحر هوت وهوسكن فى التاسع والعشرين من يولية سنة ١٨٨٢ أى بعد وصول ديلسبس إلى الإسكندرية بعشرة أيام ، وفى ٢ أغسطس أنزل الأسطول البريطانى جنوداً إلى البر فاحتلوا السويس .

ويقول عرابى فى مذكراته إن ديلسبس أرسل إليه فى ١٤ يولية يسأله عن رأيه فيما يخص القناة فى العمليات الحربية، فأرسل إليه عرابى يقول إنه لن يتعرض للقناة ، إذا نجح فى منع مراكب الإنجليز من خرق حيادها . فرد ديلسبس فى اليوم نفسه ، بأنه ضامن ومتكفل بمنع الإنجليز من اختراقه ما دام فيه عرق ينبض. وقد عاش ديلسبس، وبقيت كل عروقه تنبض بعد أن احتل الإنجليز السويس ، وأنزلوا فيها جنودهم ، ولم يفعل شيئاً ، ولم يكن فى واقع الأمر يهمه من الأمر إلا أن تبقى القناة سليمة ، ما دامت حكومته لا تبغى أكثر من ذلك ، ولا تفكر فى أن

تقاسم الإنجليز السلطان فى مصر، أو تمنعهم عنها .

ولم تفعل إنجلترا لتخرق حرمة القناة، أكثر من أن تذيع عن طريق سفاراتها فى مختلف عواصم أوروبا ، أن المصريين بدأوا يقيمون طوابى وتحصينات فى غرب القناة ، ولكنها لم تكن فى حاجة إلى بذل مجهود جدى لإقناع الدول بأن خطراً يهدد القناة بعد أن ضربت الإسكندرية فى ١١ يولية ، على مرأى ومسمع من الدول جميعاً فلم تتدخل دولة واحدة فى هذا الأمر ، أو تحتج عليه ، أو تمنع بريطانيا من مواصلة سياستها التى كشفها هذا العدوان. كانت كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا قد قررت نفض يدها من قضية مصر ، وتركت بريطانيا حرة تفعل ما تشاء. فهل كان عرابى محقاً فى أن يخشى الرأى العام العالمى إذا هو أقدم على ردم القناة ؟

والحق أن هذه القضية، قضية الرأى العام العالمى ، من الأوهام التى احتلت قدراً كبيراً من تفكيرنا السياسى منذ قامت الثورة العرابية حتى هذه الأيام ، وأصبح من المتعين علينا أن نحلل هذه القضية إلى عناصرها الأصلية ، حتى لا نتعرض بسببها للضياع أو الخسران .

ويجب أن نثبت أولا : هل هناك فعلاً ما يسمى الرأى العام العالمى؟ وبغير تردد، أقول لأخى المواطن إنه موجود فعلاً ،

وإنه غير موجود أصلاً . . . غير موجود لأن العالم لم يكن فى يوم من الأيام معسكرًا واحدًا. فالمعسكرات الدولية المختلفة ، تخلق داخلها آراء عامة بطريق الصحافة وما تروجه من أفكار ومعلومات وإحصائيات . ولذلك فالمشكلة الواحدة ، ينظر العالم إليها من أكثر من زاوية. وما يعتبر جريمة فى معسكر، يعتبر عملاً وطنياً فى معسكر آخر ، ويعتبر عملاً لا يستحق التعليق فى معسكر ثالث ، ولا يسمع به إطلاقاً أهل معسكر رابع . ولكن يحدث أحياناً أن تقوم حرب دعاية بين معسكرين ، وحول موضوع معين ، فينجح أحد المعسكرين ، فى غزو المعسكر الثانى ، بنشراته وصوره ، وإذاعاته ، وأحاديثه ، فيبدو أن العالم قد انحاز إلى الرأى الذى يمثله هذا المعسكر، فالرأى العام العالمى ، هو من خلق وصنع بعض رجال السياسة . هم وحدهم الذين يخلقونه . ثم يلونونه باللون الذى يعجبهم ، و يوجهونه إلى الوجهة التى تروقهم . ولذلك فإن تحدى هذا الرأى العالمى ، لا يخيف إذا كانت الدول التى تخلقه غير مستعدة لأن تقوم بحرب من أجل الدفاع عنه . وفى تاريخنا الحديث أمثلة كثيرة ، فقد ثار الرأى العام فى فرنسا على اتفاق هور ولافال على تقسيم الحبشة بين فرنسا وإيطاليا ، ولكن موسولينى احتل الحبشة ، ولم ينفع هذا الرأى العام فى رد جندى واحد من جنوده . وقد كان الرأى العام يعتبر إسبانيا فاشستية ،

تعاونت مع هتلر ، ولم تشترك فى الحرب ضده ، وصدرت قرارات
ن هيئة الأمم بقطع التمثيل السياسى بينها وبين الدول الأعضاء
ى هذه الهيئة ، ولكن ذلك لم يمنع التعاون بين إسبانيا وبين الدول
لديمقراطية من أن يزداد ويتوثق . وقد كانت ألمانيا منبوذة ،
أصبحت صديقة . وقوتها العسكرية تبنى بأموال الدول التى
حتلتها وقررت نبذها .

فالرأى العام الذى تخلقه المصلحة هو رأى عام متقلب ،
لا يحترم إلا الأقوياء ، ولا يعرف إلا الأمر الواقع ، فإن كنت
قويًّا ، تعرف مصلحتك ، وتحسن انتهاز الفرص المحققة لها ،
غير محتفل بقيد من قيود الأخلاق أو العرف ، فأنت صديق
هذا الرأى العام العالمى ، مهما حكم عليك فى الماضى ، أو
تجهم لك ، تجهماً يبدو أنه يخفى قطيعة أبدية .

فالرأى العام العالمى ، يلعن الأميرال سيمور الذى يضرب
مدينة الإسكندرية العزلاء فى ١١ يولية ، ويعتبر عمله إجراماً ويؤلف
عن ذلك الإجرام كتباً ، تتزاحم فى سطورها الأدلة المثبتة
للجريمة ، ولكن هذا الرأى العام نفسه حينما ينجح الأميرال سيمور
ويحتل مدينة الإسكندرية ثم يحتل الجنرال ولسلى زميله مصر ،
يعترف به وبزميله ، ويتعامل معهما ، ويغمض عينه وهو يرى
أحمد عرابى مسوقاً إلى المنفى ، متهماً بالجرائم الغلاظ .

ولكن إلى جانب هذا الرأى العام المغرض ، الذى لا ضمير له ، يوجد رأى عام إنسانى ثابت مستقر ، يعرف العمل الصالح ويميزه عن العمل الطالح ، ويصدر على كل منهما الحكم الذى يستحقه ؛ ذلك هو رأى الناس المجرد عن الهوى .

ولكنه للأسف رأى لا يلعب أى دور فى عالم السياسة ، ولا وزن له فى توجيه أحداثها ؛ لأنه رأى العامة المتفرقين فى أنحاء العالم ولأنه لا يملك الوسيلة للتعبير عن نفسه .

هذه هى حقيقة الرأى العام العالمى ، فماذا كان يفعل هذا الرأى العام العالمى فى أحمد عرابى ، لو أنه ردم قناة السويس ؟ هناك فرضان ، لا ثالث لهما فى هذه المسألة ، أولهما أن يردم المصريون قناة السويس ، ثم يردون الإنجليز على أعقابهم وتستقر الأمور فى أيديهم فى الداخل . فى هذه الحالة ، لا يفعل الرأى العام إلا أن يضفر أكاليل الغار على رأس أحمد عرابى وتتألب دول أوروبا على إنجلترا لأنها جميعاً تضمر لها الكراهية والحسد ، ولأنها وإن كانت قد نفضت يدها من قضية مصر ، فإنها لم تفعل ذلك زهداً فيها ، ولا انصرافاً عنها ، بل خوفاً من تبعاتها وعجزاً عن منافسة إنجلترا ، فى مواجهة الأخطار ، والتهيؤ لها مالياً وعسكرياً . فلم تكن فرنسا ولا تركيا ولا إيطاليا تتمنى أن تزيد رقعة بريطانيا ، ولا أن يتسع نفوذها ،

ولم تكن ألمانيا، تود ذلك ، ولكنها ترى فى السكوت على نشاط بريطانيا فى مصر أن تتسع الهوة بين فرنسا وإنجلترا ، وفى السياسة ، كما فى كل شىء آخر ، يصدق قول الشاعر :

والناس من يلق خيراً قائلون له   ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل

فعرابى مجرم يهدد أمن مصر ، إذ لم يتنصر ، ولكنه حينما يطرد الإنجليز وينجح ، يصبح بطلاً وطنياً ، ويصبح ردم القناة عملاً يمكن علاجه ، لاسيما أن ردم القناة شىء وتعطيل الملاحة فيها إلى الأبد ، وأضاعه مصالح حملة أسهم القناة فيها شىء آخر .

أما الفرض الثانى ، وهو أن يحاول أحمد عرابى ردم القناة فلا ينجح فيه ، أو ينجح فيه ، ولا ينجح فى رد الإنجليز عن البلاد فعاقبته نفس العاقبة التى ختمت بها أعمال عرابى ، حينما هزم فى التل الكبير .

فلا دفاع ينهض عن خطأ أحمد عرابى ، فى عدم ردم القناة ، والأساطيل الإنجليزية تنحدر منها ، وتصعد فيها لتحتل بلاده . البلاد التى جرى دم وعرق أبنائها مجرى القناة قبل أن تفتح . البلاد التى احتملت فى سبيل هذه القناة من الويلات والمصائب ، وأنفقت فى سبيلها من الأموال والجهود ، ما لم تبذله أمة أخرى فى عمل يعود نفعه على الناس أجمعين أكثر مما يعود عليها أو على أبنائها .

والرأى الذى نقول به نحن اليوم فى صدد هذا الخطأ قال به

المعاصرون لأحمد عرابى من المصريين والاجانب الذين كانوا يعجبون به، والذين لم يدخروا وسعاً فى الدفاع عنه. فالكاتب السويسرى جون نينه يقول «إن عرابى رفض فكرة سد القناة، وتمسك برأيه على الرغم مما تقضى به الخطط الحربية والفنية، وعلى الرغم مما ذهب إليه زملاؤه وما ذهبت إليه وكررته له تارة بشديد الكلم وتارة بالكتابة. على الرغم من ذلك كله ظل عرابى على رأيه، يمهد للجنرال ولسلى نصراً من أسهل ما عرف فى تاريخ الحروب».

والثابت أن محمود فهمى باشا الذى أقام تحصينات كفر الدوار المنيعة، التى نجحت فى رد الإنجليز فى الميدان الغربى، قد نصح عرابى مراراً بتحصين الميدان الشرقى، وبسد القناة. وليس من الممكن الجزم بأن دسائس الخديو، ورشاويه، ودعاة الفتنة، والساعين بالوقيعة، ومال الإنجليز، وخيانة من خانوا — ليس من الممكن الجزم بأن ذلك كله كان سيؤدى إلى هزيمة الجيش المصرى فى الميدان الشرقى، لو أن قدراً معقولاً، من التحصين، أقيم فى هذه الناحية، ذلك لأن أسباب الهزيمة غير المشروعة، دائماً لا تفرخ، إلا حيث تجد الجو المناسب لها، من التخاذل والإهمال والتفريط فى الواجب، وقد وجدت ذلك كله فى الميدان الشرقى.

ويقول الشيخ محمد عبده، إن أحمد عرابى كان يتصور أن مس القناة «سيهيج عليه جميع الأمم» ، فمصر ذهبت ضحية فهم غير صحيح، للسياسة الدولية من جهة ، وإلى تفريط من جهة أخرى. فإن عدم ردم القناة لا يستتبع أن تترك مصر من الناحية الشرقية ، بلا أى نوع آخر من الاستحكامات.

* * *

لقد رأينا كيف أحللنا أحمد عرابى ، مكانه العظيم اللائق به فى تاريخ مصر ، وفى تاريخ كفاحها؛ لكن من حق مصر على عرابى ، ومن حق تاريخها علينا ، ولا سيما أننا نستخلص منه العظات والدروس لنتسلح بها للمستقبل: أن نقول إن أحمد عرابى أخطأ هنا خطأ لا ينفع فيه دفاع، وإن كان يشفع له فيه أنه كان رجلا أمينا سليم النية أخذ العهود والمواثيق الإنسانية مأخذ الصدق ، فقد خفيت عليه حقائق السياسة الدولية بأقذارها ، وأحابيلها ، فسرى فى وهمه أن بريطانيا لا تجرؤ أن تدوس حياد القناة ، كما تخيل أن ديلسبس قادر على أن يحمى القناة .

فليفهم أحفاد عرابى ، من أبناء مصر ، أن الحق الدولى وحده ، لا ينفع ما لم تعززه القوة المادية ، وما لم يؤكده استعداد الشعب للدفاع عنه .

١٠

أخى المواطن :

قبل أن يقع الاحتلال البريطانى لمصر فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ بثمانية أعوام ولد فى حى متواضع من أحياء القاهرة ، لضابط مهندس ، ولد ، كان ميلاده ، الوجه الآخر ، لحالة مصر ، فى الحقبة الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنين الأولى من القرن العشرين .

والحق أن الإنسان ليتصور ، وهو يقرأ تاريخ مصطفى كامل أنه كان على موعد مع الاحتلال البريطانى ، فإنه ما كاد يبلغ سن الشباب المبكر ، سن الخيال المشبوب والإحساس المرهف ، والإيمان بالمثل ، والتجرد عن المصلحة ، حتى وقع الاحتلال. ولا نحسب أن مصطفى كامل كان قادراً أن يسلك فى مناجزة الاحتلال ، ومقاومته وإثارة الناس عليه والتشبيب بمصر ، وجمالها ، وتاريخها ، والإشادة بمفاتنها ومفاخرها ، المسلك الذى اختاره ، لو أن مصر نكبت بالاحتلال وهو فى فترة متقدمة ، أو متأخرة عن السن التى بلغها ، حينما وافت سنة ١٨٨٢ . ولقد كانت مصر

فى أشد الحاجة إلى شاب ، ليوقظ فيها شبابها ، فقد كان كل شىء فيها ، عند ما وقع ذلك الاحتلال البغيض ، غارقاً فى القدم متحللا تحلل الشيخوخة والهرم . كانت الأمور والعقائد والأفكار والأساليب والأدوات كلها متخلفة عن الزمن تخلفاً لا ينفع فى رد الأحداث ، أو فى تخفيف وقعها ، وكانت الحضارة التى التى تغزو مصر وتغزو معها الشرق الغربى ، حديثة غاية الحداثة ، فإنه لم يكن قد انقضى على تسخير البخار ، فى بناء هذه الحضارة إلا سنون لم تبلغ نصف قرن ، ولم تكن الكهربا ، ومنتجاتها ، قد عرفت بعد ، أو عرفت على نطاق واسع ، ومن هنا كانت حضارة فى طور صباها ، فلم تلق إلا قدماً متداعياً ، وماضياً متلكئاً ، فلو لم تسق الأقدار مصطفى كامل ، لكانت الكفتان غير متكافئتين إطلاقاً ، ولكن مصر ، التى كانت تعيش أكثر حياتها ، على مدى السنين ، على ما يشبه المعجزات ، وخوارق الأمور ، لم تخرج عن سننها المألوف ، فأخرجت فى الوقت المناسب مصطفى كامل . ولا نعرف قدر مصطفى كامل على حقيقته إلا إذا أدركنا أنه منذ اللحظة الأولى عرف ماذا يطلب من بلاده ، وماذا يطلب من أعدائها الغاصبين .

طلب من الإنجليز الجلاء ، وطلب من أهل وطنه أن يثقوا من أن هذا الجلاء واقع ، لا محالة .

وقد يقول قائل : وأيِ غرابة فى أن يطلب الزعيم من أعداء الوطن ، أن يجلوا ؟ والحق أنه لا غرابة فى أن نتصور اليوم ، أى بعد اثنين وسبعين عاماً من وقوع الاحتلال ، أن الشيء الطبيعى الذى لا يتصور غيره ، أن يطلب أبناء الوطن المعتدى عليه من عدو بلادهم المعتدى ، أن يترك لهم وطنهم . ولكن للاحتلال والهزائم صدمة ، تذهل لها الشعوب عما يجب ، فتضطرب ويسوء فعلها كما يسوء قولها ، وتقع فيما لا تقره أو ترضاه حينما تثوب إلى عقلها . .

وقد حدث بالفعل ، أن نظر كثير من الناس أول الأمر ، إلى دعوة مصطفى كامل كما ينظرون إلى من فقد بعض عقله . وإنى لأذكر أن المرحوم « ع » باشا ، بعد وفاة مصطفى بأكثر من أربعين عاماً ، وبعد أن غلبت الروح الوطنية على الأمة ، قال لى فى غير ما تحرج ولا تأثم ، إنه قابل مصطفى كامل على محطة حلوان فى ذات يوم ، فدعاه إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى ، أو إلى جماعة الوطنيين وأن عبد العزيز باشا قال لمصطفى كامل : ابعد عنى . . . الله يحنن عليك . .

وقد أردف هذا بإشارة من يده ، وأخرى من عينيه ، معناها أن عقل صاحبنا كان خفيفاً .

ولقد بقى هؤلاء العقلاء ، خصوماً للحركة الوطنية لا عن

خيانة وإنما عن نقص فى الخيال، وفى الحرارة ، واختلال فى غريزة الكفاح عندهم ، وقد كان من الممكن أن يتقدم أحدهم صفوف الحركة الوطنية ، فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، فيبتلى الوطن، بأكثر من الاحتلال نفسه . وقد حدث شىء من هذا ، فى تاريخ الأمم الأخرى، فقد سبق غاندى زعيمان أحدهما كوجهال والثانى تيلاك ، فلم يستطع أحدهما أن يجمع الشعب الهندى كله، حول زعامته ، مع أن أحدهما كان خالياً من العصبية الطائفية، إلى درجة تخيف أبناء دينه ، وكان الثانى متطرفاً ، فى هذه العصبية إلى درجة تخيف أبناء الدين الآخر ، وكان يعوز كلاهما هذا الخيال الممدود ، وهذه الحرارة المتجددة وهذا التجدد المستمر الذى كان لغاندى ، ومن ثم تأخرت الحركة الوطنية حتى وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها فى سنة ١٩١٨ .

وقد كان مصطفى كامل فى رأى خصومه ، خيالياً ، متطرفاً وقد كان هذا عين ما تحتاج إليه مصر ، بعد صدمة الاحتلال البريطانى، فقد أعانه خياله على أن يرى مصر ، بعد سنين طويلة . ولو لم يمتد نظره إلى مصر المستقبل البعيد، لما استطاع أن يدعو أحداً إلى المقاومة ، ولما لبى دعوته أحد . فقد كانت الديون قد بلغت فى إرهاق الفلاحين وأصحاب الأطيان ، إلى حد

لم يكونوا قادرين بعدم، أن يفكروا فى مقاومة ، أو نضال ، خصوصاً بعد أن أضيف إلى هذا الإرهاق خيبة الأمل الناجمة من هزيمة التل الكبير ، وقد كان الجميع فى حاجة إلى فترة من الاستجمام ، فلما بدأ الاحتلال يدخل التنظيمات البدائية التى أدخلها على أداة الحكم ، كانت مظهراً من مظاهر النظام بدا أنه شيء عظيم فى أعقاب الفوضى التى أشاعها حكم إسماعيل وظلمه وإسرافه ، مع أنها كانت البداية التى حددها الاحتلال لإقامة الحواجز بين الحكومة والشعب ، وجعل أداة الحكم جهازاً خاصاً بالأجانب والأغنياء .

ولا يظنن أحد الظنون بالمعنوية المصرية ، فيزعم أن الشعب المصرى ، انفرد وحده دون غيره من الشعوب باليأس والاستسلام عقب الهزائم ، فالشعب الأرلندى بعد أن قام فى ثورة مسلحة ضد الإنجليز فى أواسط القرن الثامن عشر ، كره كل من يدعوه إلى المقاومة ، ولذلك اضطر زعماء الشين فين فى القرن التاسع عشر إلى التحايل للوصول إلى قلب الشعب ، فبدأوا حركتهم بالدعوة إلى بعث اللغة الأرلندية التى اندثرت ، والآداب الوطنية التى طمرت ، وإلى تجديد الغناء والرياضة القومية ، وقد اجتمع الوطنيون أول ما اجتمعوا فى أندية الرياضة ، ومدارس اللغة القومية ، وفى حفلات التمثيل ، قبل أن يجتمعوا فى ساحات التدريب

العسكرى ؛ وقد تعارف المجاهدون الشبان ، كرواد للأدب الأرلندى وكأبطال فى الرياضة البدنية قبل أن يتعاونوا كجنود وكمقاتلين .

ولقد وصل مصطفى كامل إلى قلب الشعب المصرى ، من أيسر السبل ، وهو سبيل الحديث عن الماضى ، والتغنى بجلائله ومفاخره ، فإن المصرى شديد الحب لماضيه وشديد الحماسة له ، عظيم الإقبال على الحديث عنه ، وقد عزز هذا بالتغنى بجمال مصر ، وفى المصريين ميل إلى هذا الحديث ، لأن عامتهم قبل خاصتهم ، يتناقلون عبارات كجوامع الكلم فعامتهم يقولون « إن مصر أم الدنيا » وخاصتهم يقولون «مصر كنانة الله فى أرضه من أراد بها سوءاً قصمه الله » .

ولقد كان أسلوب مصطفى كامل آية فى السهولة ، واليسر ، خالياً من المحسنات اللفظية ، ومن الجمل الاعتراضية ، ومن الأفكار العميقة ، تسوده حماسة متدافعة ، تربط ألفاظه ومعانيه بقلب الإنسان قبل عقله ، خذ مثلاً هذه القطعة عن مصر :

« ألا أيها اللائمون ! انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها ، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً وأسمى شاناً ، وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

« اسألوا العالم يجبكم بصوت واحد أن مصر جنة الدنيا وأن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها لأجنبي .

« إنى لو لم أولد مصرياً، لوددت أن أكون مصرياً » .

ولقد جرت هذه الفقرة الأخيرة على الألسن ، وحفرت فى الأذهان، وأصبحت شعاراً ذائعاً وهى إحدى العبارات التى قصد مصطفى كامل بها ، إلى تحقيق غرضين : الأول الإعجاب بمصر، والثانى الثقة بمستقبلها .

ولقد اشتدت حملته، بنفس الأسلوب على الناس ، فصور للأمل صوراً جميلة أخاذة، وصور للناس ، صوراً دميمة كالحة فقال :

« إن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم فلا تنادي فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديداً. وترى رجال هذه الفئة اليائسة يتهمون كل رجل ينادى بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر. وعندى أن الرجال اليائسين وأن كانوا أقل من القليل

يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه » .

ثم قال فى موضع آخر :

« وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها وتذكروا دائماً قول جامبتا الشهير : ليس المستقبل بمستعص على أحد » .

ولقد كان من خصائص مصطفى كامل ، أنه خطيب وكاتب معاً ، وأنه هو هو فى حالتى الكتابة والخطابة . فحديثه فى الحالين خطاب إلى قلوب الناس وعواطفهم، وإثارة لخيالهم ، وإيقاظ لآمالهم ، وتهوين لمتاعبهم، واستحثاث لكامن قواهم ، والهادئ الخامد من عناصر قوتهم .

ولقد حدثنى من أتيحت له فرصة سماع خطب مصطفى كامل ،عن عظيم تأثيره فى السامعين، فقال إنه أقرب إلى تأثير الفنان ، منه إلى تأثير رجل السياسة ، فالسامعون باد عليهم عميق الحب للخطيب ،والاستمتاع بصوته وشكله ، وشبابه ، وهم يتذوقون حلاوة صوته ، وعذوبة لفظه ، وكأن الغاية من الاجتماع به ، هو الإنصات إليه ، ثم الانصراف بعد ذلك ، كما ينصرف رواد المسرح، ولكنهم حينما يؤوبون إلى دورهم، يحسون أن شيئاً جديداً قد دب إلى حياتهم، وأن نظرتهم إلى الأمور قد تغيرت ، فشؤون الأمة والدولة ، وعلاقات الإنجليز بالخديو ، وعلاقة

الخديو بالشعب ، تبدأ فى الاستئثار باهتمامهم مقترنة بتململ من الاحتلال وقوة قبضته ، ومن تدخل المستشارين فى شؤون التعليم والمال والإدارة ، وهكذا دواليك حتى أصبح الإعجاب بمصطفى كامل الخطيب ، كراهية للاحتلال ، والكراهية للاحتلال ضيقاً به ، والضيق به سخطاً عليه ، وهكذا أصبح مصطفى كامل رمزاً على فكرة وطنية ، استحالت مع الزمن إلى عقيدة ، والعقيدة أصبحت حافزاً للنضال الذى بدأ بيننا وبين الإنجليز .

لم يكن ينقص المصريين بعد هزيمة التل الكبير ، إلا أن يستعيدوا حب النضال وأن تتحرك فيهم غريزته . وأن يدعوا الاستسلام للهزيمة ، والرضا بها ، واليأس من تغيير نتائجها . وقد نجح مصطفى كامل ، فى أن يوقظ هذه الغريزة ، لأنه قطع كل ما يمكن أن يقوم بين الاحتلال وبين الشعب ، من أسباب التفاهم أو التلاقى أو المصاحبة : أبرز الاحتلال ، فى ثوبه الحقيقى ، فعرف كل مصرى أنه العار ، وأن الشرف والعار لا يتجاوران ولا يتهادنان ، ولا يتفاهمان ، ولا يتقاسمان شيئاً واحداً ، ولا أرضاً واحدة ، ولا يتنفسان فى هواء واحد ، أو يتغذيان من طعام واحد .

هذه جملة حياة مصطفى كامل ، وخلاصة زعامته وسر خلوده .

١١

أخى المواطن :

ما الذى كان يفعله مصطفى كامل ، كل عام ؟

أكان يتجول بين عواصم أوربا : باريس وفينا وبرلين وروما ، يوزع خطبه اعتباطاً ، على المحافل والنوادى ، ويوزع مقالاته على الصحف والمجلات ، بلا حساب ؟ إن بعض الذين يعرفون ظاهر حياة مصطفى كامل يتصورون أنه كان يفعل شيئاً قريباً من هذا ، أى أنه كان يحسن الكتابة والخطابة والحديث بالعربية والفرنسية ، وأن ذلك أعانه على أن يتنقل بين العواصم ، داعياً لمصر ، مشيداً بأهميتها ، منددا بالاحتلال وهذا أبعد شىء عن الواقع .

فالدعاية ليست مجرد كلام منطوق أو ملفوظ ، أو لعلها كذلك إذا كانت دعاية داخلية ، تجرى فى البلد الواحد ، ولكنها حينما تكون دعاية دولية ، إنما تعتمد أول ما تعتمد على تحرى مصالح الدول والمعسكرات ، وهذا يجرنا إلى مثل الكلام الذى قلناه عن الرأى العام العالمى ، حينما تحدثنا عن موقف عرابى من قناة السويس وسدها أثناء محاولة الإنجليز احتلال مصر .

فالدعوة التى توجه إلى أصحاب الرأى والمفكرين يجب أن تختلف عن الدعوة التى توجه إلى رجال السياسة وأصحاب المناصب وكلاهما يختلف عما يوجه إلى النواب خصوصاً إذا كانوا من الأحزاب المعارضة للحكومة القائمة فى بلادهم .

ويخطىء من يظن أن الداعى قادر على أن يحقق شيئاً للبلاد إذا هو نزل فى بلد من البلاد ، فطبع كتباً ، ومنشورات ، وحلاها بالصور ، والأرقام ، ووزعها على الناس . فإن الرأى العام فى معناه العام ، لا يفعل شيئاً ، ولا يملك شيئاً . فمن الخبل أن يتصور مثلاً أن كل بريطانى ، أو أن أكثرية البريطانيين مشغولون بمشكلة احتلال بريطانيا لمنطقة القناة ، أو أنهم يتابعونها ويقرأون أنباءها . ومن الخبل أن نتصور أيضاً أن كل أمريكى يعرف مشكلة إسرائيل ، ويهتم بها ، ويعرف أصل النزاع ، بين إسرائيل والعرب . فالواقع أن للفرد العادى فى البلد المتمدين من الهوايات ، والمشاغل ، والمشاكل ، ما يبعده عن شئون السياسة عموماً ، وشؤون السياسة العالمية خصوصاً . ولو أردنا أن نلمس فى نفوسهم الأوتار الإنسانية ، ليؤثروا فى الانتخابات العامة ، فإننا نكون أقرب الناس إلى من يحاول حفر بئر ، بسن إبرة ، ذلك لأن تحقيق هذا الهدف يقتضينا من الزمن وحده سنوات وسنوات .

فما الذى كان إذن يميز مصطفى كامل كداعية ؟ وما الذى

رفع قدره فى حلبات السياسة الدولية ؟

بدأ مصطفى كامل حياته السياسية الدولية ، بدءاً صحيحاً ، فقد درس الاحتلال البريطانى كمشكلة دولية ، فتوافر على تحرى آثاره ، على مصالح الدول الكبرى ، التى تتظاهر بعضها بصداقة الإنجليز ، والتى يجاهر بعضها الآخر بمخاصمتها وعداوتها .

وقد بدأ إنتاجه السياسى فى ١٤ أغطسس سنة ١٨٩٥ ، بإخراج كتيب صغير، هو خلاصة فهمه للدعاية السياسية فعلاً ، وقد عنون هذا الكتاب « أخطار الاحتلال البريطانى » .

نعم ، هذه هى نقطة الابتداء .

أخطار الاحتلال البريطانى ، فإما أن يكون للاحتلال البريطانى خصوم بين الدول والساسة وأصحاب الصحف وقادة الرأى ، فيكون للدعاية مبرر ، وإما ألا يكون له شىء من ذلك ، فلا نفع من الكلام .

وهو حينما بدأ يوزع هذا الكتيب ، لم يقنع بأن يتم هذا التوزيع اعتباطاً ، بل قصد أن تصل هذه الرسالة إلى أيد معينة من بين رجال السياسة وأهل الرأى ، وكان فى مقدمة الذين أرسل إليهم ، السيدة جولييت آدم . ذلك لأنها كانت عدوة لسياسة الانسحاب والتراجع التى سارت عليها فرنسا أمام إنجلترا وعدوة بصفة خاصة لإنجلترا . ولذلك تلقتها بسرور ، واحتضنت

صاحبها ، وأفسحت له مكاناً فى صالونها العظيم الذى كان يضم الساسة ورجال الفكر والقواد العسكريين والأدباء . فتعرف مصطفى كامل بفضله على النائب ديلونكل ، وعلى الشاعر الشهير بيير لوتى وعلى الكولونيل مارشان بطل حادثة فاشودة والكاتب أرنست حوديه وغيرهم وغيرهم من ذوى المكانة والحيثية .

ولعلنا نفهم ماذا تكون الدعاية ، إذا تأملنا فى التقدمة التى قدمت بها جريدة الإكلير الفرنسية الشهيرة لحديث مصطفى كامل معها فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ ، قالت الجريدة :

« ورد علينا فى الأسبوع الماضى تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر ، قررت إلغاء البعثة المصرية فى فرنسا ، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى مصطفى كامل وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يعول عليها » .

فالجريدة ، لم تقصد مصطفى كامل تشجيعاً له ، ولكن للانتفاع بصوته وقلمه فى مسألة تهم فرنسا ، وتضايق إنجلترا . وهذه المسألة الصغيرة ، ليست إلا أنموذجاً لكل مسألة أخرى كبيرة تهم السياسة والساسة .

فمصطفى كامل ، كما كتب لأخيه المرحوم على فهمى كامل

فى مايو سنة ١٨٩٥ ، كان يقضى ليله ونهاره فى مخالطة كبار السياسيين : « لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية ، وطرحها على بساط المناقشة من جديد ».

ولقد حاول كثيرون بعد مصطفى كامل أن ينزلوا إلى ميدان الدعاية السياسية المصرية ، أو أن يتكلموا فيها ، ثم فتح هذا الباب على مصراعيه ، حينما وقعت كارثة فلسطين ، وأحس العرب ، بحاجتهم إلى تنظيم الدعاية ، فى أمريكا وأوروبا ، وشحذ سلاحها وتجميع العاملين فى ميدانها وتنسيق الجهد بينهم . وكان مصطفى كامل دائماً ، مثلا يتجه إليه الدارسون والمقلدون ، بأنظارهم ، لعظم النجاح الذى حققه . ولكن كان يغيب عن الدارسين ، والراغبين فى التقليد ، الأمور الرئيسية التى أشرنا إليها ، فيما تقدم ، وأمور أخرى لا بد منها لنجاح الداعية .

وأول هذه الأمور بلا مراء هى المغامرة ، فمصطفى كامل كان يسافر كل سنة إلى جميع عواصم أوروبا أو إلى أكثرها ، أو إلى باريس على الأقل . فكان رصيده من الصداقات والمعارف ومن الاتصالات ، يزداد يوماً بعد يوم ، وسنة بعد سنة . فكان من الميسور عليه ، كلما وقعت أزمة ، أن يجد المحبين والعاطفين والمؤيدين . فلم تكن دعاية موسمية ، تقع حينما تمر

بالبلاد ، محنة ثم تنقطع .

وثانى هذه الأمور أنها كانت ثمرة الاتصال الشخصى ، بعد تحرى المصلحة الدافعة للدولة التى يدعو فيها ، أو السياسى الذى يستعين به . فلم تكن وسيلتها الوحيدة ، المال المبذول . ولم يكن أعوان مصطفى كامل أجراء يدفع لهم المال . لشراء أقلامهم أو ذممهم ، بل كانوا من أصحاب العقائد الذين تلاقت مصلحة بلادهم أو أحزابهم مع مصلحة مصر ، ومع جلاء الإنجليز عنها.

وثالث هذه الأمور ، هى أن الدعوة التى كان يقوم بها مصطفى كانت عامة ، فلا تعتمد أبداً على الفرنسيين دون الألمان أو الطليان أو الأتراك أو حتى الإنجليز ، ولذلك كانت القضية المصرية ، دولية بحق ، فقد شغل بها كل محفل دولى ، وعرفها نواب ألمان ونمساويون وطليان ، وتحمس لها كتاب ومفكرون من كل جنسية .

ورابع هذه الأمور ، أن الأمر لم يكن دعوة صرفة ، فقد كان لنشاط مصطفى كامل الداخلى ، وتنظيمه الجبهة الوطنية ، وإنشائه جريدة اللواء ، والمجلات الأخرى الأسبوعية والشهرية ، ودفع الحركة التعليمية ، والدعوة إلى إنشاء الصناعة ، وتبلور الرأى العام الوطنى ، وتجميع الشبان والمثقفين حوله . . كان لكل ذلك أثر فى رفع قدر دعوة مصطفى كامل فى الخارج ،

فقد كان إحساس رجال السياسة، فى المحافل الدولية، أن هذه الدعوة ، هى دعوة حركة خيرية إيجابية ، تنمو وتزدهر ، فى وادى النيل. وأن مصطفى كامل هو لسانها المعبر عنها، فالاحتفاء به والإقبال عليه ، هو كسب دولى .

ولكن مصطفى كامل لم يكن يقصر دعوته على مجرد الخطابة، بل كان ينتفع بالخلافات الدولية ، فى خدمة بلاده ، ومن هذه الأمثلة، انتفاعه بالتنافس بين الاستعمارين الفرنسى والإنجليزى على استعمار أفريقيا ، والتوسع فى بسط النفوذ على مجاهلها ، فقد كان يرجو أن يؤدى هذا التنافس إلى الاصطدام بينهما اصطداماً يؤدى إلى إجلاء الإنجليز عن السودان. وقد حدث هذا التصادم بالفعل فى سنة ١٨٩٨ عند فاشودة ، وكادت القوات الفرنسية بقيادة الكولونيل مارشان ، تصطدم بالقوات الإنجليزية بقيـادة كتشنر ، ولكن فرنسا كعادتهـا ، كلما التقت مع إنجلترا، خصوصاً ، بعد هزيمة نابليون فى واترلو، لا تلبث أن تحنى رأسها وتنسحب . ولم يتأخر مصطفى كامل فى أن يبدى ألمه وخيبة أمله فى السياسة الفرنسية عند أقرب الناس إليه من الفرنسيين- كمدام جولييت آدام - كلما قضت المناسبة، فقد كتب يقول لها من فينا فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ :

« إن الإنجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يريدون .

ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل . ويسخرون أكبر سخرية من أوروبا وعلى الخصوص من فرنسا لأن خطة فرنسا فى هذه الأزمان الأخيرة قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا ظلماً أشد مما كان . والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها فشل وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حباً لبلدكم الجميل الكريم . وفى الواقع إن سياسة فرنسا تظهر بمظهر من يريد كل شىء أو لا شىء » .

وقال لها فى خطاب آخر من بودابست ، فى ٢٨ يونية سنة ١٩٠٠ :

« اعتقدى أنى إذا ذهبت كل عام إلى باريس فلأراك
« أنت الوحيدة التى تمثلين أمام عينى فرنسا القديمة . فرنسا ذات
« الهمة والإقدام . إن السياسة الأوروبية تبغض إلى بكل
« جوارحى المدنية الحديثة ، ولكن السياسة الفرنسية تعكس
« أمرى وتجعلنى ذاهلا أمام التناقض الغريب المسطور فى
« تاريخها . عجباً أنسيت فرنسا فاشودة ؟ ! »
« إن سياسة الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحداً يجعلنى آملا
« فيها ، إنك كنت تذكرين لى مرشان فى خطابك ، فلا
« بد أن يتألم الآن أشد الألم من السياسة الفرنسية ؛ وماذا
« عسى أن يقول عن البوير » .

« إن اعتقادى الخصوصى أنه سينصب لأوروبا فى الصيد
« أشراكاً ، تندم عليها بكل تحسر . فقد حارت
« ألمانيا فى سياستها بالشرق الأقصى ، وهذا المرض الذى
« ابتليت به أوروبا وهو ورغبتها فى امتلاك كل شىء فى
« الوجود سيعود عليها بالوبال ، وإن الأنباء تحدثنا اليوم
« بالاتحاد الأوروبى فى الصين ، والارتباط الوثيق بين
« القوى الأوروبية ، فيا له من عار ! أما كان ينبغى أن
« يكون هذا الاتحاد وهذه الرابطة فى مسألة الترنسفال ، فأين
« شرف أوروبا من اتحادها وشهامتها أمام الصين وانقسامها
« ووجلها أمام إنجلترا ؟ » .

« ولما اتفقت إنجلترا مع فرنسا على تقسيم شمال أفريقيا بينهما فى سنة ١٩٠٤ كتب لها يقول فى ١٥ أبريل سنة ١٩٠٤ :

أساء إلينا مسيو ديلكاسيه (وزير خارجية فرنسا) كثيراً باتفاقه الإنجليزى الفرنسى ، لأن تعهد فرنسا بعد مطالبتها بالجلاء دفن المسألة وحكم علينا من قبلكم . وقد كتبت إلى مسيو مونتور جويل رأيى لينشره كحديث على بعد المزار ، فإذا كان قد نشره فأرجو منك أن تلفتى إليه نظر درديون ، وروشطور ودوديه وجميع أصدقائك لأنى أريد أن يقف الفرنسيون على التأثير الذى أحدثه عندنا هذا الاتفاق » .

وكتب إليها يقول فى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ :

« إن مواطنى يكرهون اليوم فرنسا ، أكثر من إنكلترا نفسها . . . إنك لا تدرين مبلغ تشامخ الإنجليز فى الوقت الحاضر فإنهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنسا ، ولهم الحق أن يسخروا » .

وكتب إليها يقول فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٦ :

« إنى أكون مجرداً من الشعور إذا اعتقدت لحظة أن فرنسا تصير صديقة مصر والإسلام » .

فليست صداقة مصطفى كامل لإحدى الدول ، هى فناء فى هذه الدولة ، ولا تسليماً بأخطائها ، ودفاعاً عن سقطاتها ، ولا سيراً فى ركابها ، إنما هى توجيه لساستها وانتفاع بمركزها ، وبخلافاتها وحروبها مع إنجلترا ، ولذلك فإن رسم سياسة الدعاية كان عملا شاقاً ، يحتاج إلى فهم عميق متجدد لبواعث السياسة ، وحوافزها الظاهرة والخفية وكان يحتاج فوق ذلك كله إلى خبرة فى استحثاث الساسة والمفكرين ، وتمكين كبريائهم وتبصيرهم بالأضرار التى تعود عليهم وعلى بلادهم ، فيما لو أهملوا مصلحة مصر ، وتجنبوها أو ضحوا بها . وفى السطور التى نقلتها لك من خطابات مصطفى كامل إلى مدام جوليت ترى إحاطته بالسياسة العالمية ، لا بالسياسة الأوروبية وحدها .

وليس أدل على انتفاع مصطفى كامل بالخلافات الدولية فى تحضير دعايته من الفقرة التالية من خطاب مؤرخ ٢٨ مارس سنة ١٨٩٧ عند زيارة له فى النمسا :

« رأيت القوم فى النمسا ابتدأوا يدركون أن الإنجليز كانوا يستغفلونهم زمناً طويلا . . . ! »

١٢

أخي المواطن :

من بلايا الاحتلال على الأمم ، أنه يطمس معالم تاريخها في نفوس أبنائها، فلا يعودون يعرفون ما إذا كانوا فى ماضيهم القريب أو البعيد ، ثم يصيبهم بالتراخى والتخاذل فلا ينهضون إلى تعرف حقائق هذا التاريخ ، وبذلك يصبحون فرائس سهلة هينة للأكاذيب التى يشيعها الاحتلال ، فيأخذونها مأخذ الصدق ، ويتداولونها تداول الوقائع التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها .

ومن بين ما حارب به الاحتلال مصطفى كامل ، الفرية التى رسخت فى أذهان البعض وهى أن مصطفى كامل لم يكن يريد الاستقلال فى ذاته لمصر ، وإنما كان يريد الاستقلال فقط عن إنجلترا ، لا لتتحرر ، وتنطلق إرادتها ، وتتساوى بغيرها من الأمم والدول التى استقلت ، بل لتكون تبعاً لتركيا ، فتنبسط عليها حماية الخليفة التركى ، وتصبح إيالة من إيالاته .

والذين يقولون هذا القول أقوام ينطبق عليهم ، ما قدمته

لك من أن أبناء الأمم المحتلة ، يتقبلون الأكاذيب ويتجرعونها كأنها شراب سائغ ويحبونها لأنها أيسر من الحقائق المغطاة التى يحتاج الكشف عنها إلى مجهود ومشقة ، فهم بلا جدال جهال كسالى ، لم تمتد أيديهم أبداً إلى تاريخ مصطفى كامل ، ولم يقرأوا حرفاً واحداً من مقالاته أو خطبه ، وأحاديثه ورسائله ، أو مذكراته وكتبه ، أو شروحه المستفيضة ، ودروسه العديدة .

وهم يجهلون الأحداث الدولية التى أحاطت بالاحتلال البريطانى ، فى سنة ١٨٨٢ ؛ ومن الخير أن ننفض هنا غبار النسيان عن عقول إخواننا .

وقع الاحتلال البريطانى ، وعلاقة مصر بتركيا ، محكومة بفرمانين (أى مرسومين عاليين) أحدهما صدر فى سنة ١٨٤٠ أى فى أخريات عهد محمد على والثانى صدر فى عهد الخديو إسماعيل ، وخلاصة هذين الفرمانين أن والى مصر كانت تعينه حكومة إستانبول من أكبر أفراد أسرة محمد على ، ثم عدل ذلك فأصبحت ولاية العهد لأكبر أولاد الوالى أو الخديو ، وقد كانت سلطة الخديو فى الترقية فى الجيش لا تتجاوز رتبة الأميرالاى ، أما ما يعلو هذه الرتبة فيصدر الأمر به من سلطان تركيا .

وبذلك كانت مصر فى الظاهر فى حكم الولاية بالنسبة

لتركيا ، ولكنها فى الواقع كانت دولة مستقلة وإن لم يكن استقلالها ثابتاً بوثيقة ، ولكنه كان استقلالا فى الواقع ، بسبب تزايد قوة مصر ، وتناقص قوة تركيا ، أو تزايد ضعفها .

ولما أرادت بريطانيا ، أن تحتل مصر ، كان مما يحرجها دوليًّا ، أن مصر تابعة رسميًّا لتركيا ، ولذلك كان من الواجب ، أن تحتاط فى كل ما تفعل ، حتى لا يكون فى تصرفها فى مصر ، مساساً بحقوق تركيا ، لأن ذلك كان يمكن أن يؤدى إلى نزاع دولى ، وقد يؤدى إلى نشوب حرب ، لو أرادت إحدى الدول الكبرى المنافسة لبريطانيا أن تستغل هذا النزاع ، وأن تثير بسببه قتالا .

ومن يقرأ ما كان يحدث فى إستانبول ، قبيل احتلال الإنجليز لمصر ، يرى كيف كانت بريطانيا تسير ، بسبب تبعية مصر لتركيا ، على ما يشبه الحبل ، كما يسير البهلوان البارع .

كان على بريطانيا أن تطمئن الدول أنها لا تريد الانفراد بالعمل فى مصر ، وأنها لا تبغى الاستئثار بها ، وأنها لا تفكر فى المساس بسلطة تركيا عليها ، ولذلك ما كادت الأساطيل البريطانية تصل إلى مياه الإسكندرية حتى أسرع اللورد جرانفل وزير خارجية بريطانيا إلى أخطار الدول بأن « الحكومة البريطانية لم تفكر قط فى أن تنزل إلى البر جنوداً ولا أن تحتل

البلاد احتلالا عسكريـًا . وفى عزم حكومة جلالة الملكة، متى أعيدت السكينة إلى مصر ، وزال الخوف على مستقبلها أن تترك مصر وشأنها، وتسحب سفنها الحربية؛ فإذا وقع عكس ما نرجو، بأن تعذر حل المسألة حلا سلميا، فإنها تتفق مع الدول ومع تركيا على ما تكون قد رأته والحكومة الفرنسية أنجح الوسائل .

ولكن حكومة فرنسا استرابت مع ذلك فى نوايا إنجلترا ، ورأت أنها تود الانفراد بالعمل ، فدعت إلى مؤتمر يعقد فى إستانبول عاصمة تركيا ، بوصفها صاحبة الولاية على مصر . ولبت بريطانيا الدعوة إلى المؤتمر ، ورحبت فى الحال بفكرته ، بل تظاهرت بالحماسة لها، ودعت الدول إلى مناصرتها ، لأنها كانت تعلم أن المؤتمر إذا عقد فسيضم دولا بلا إرادة ولا سياسة مرسومة، ومن هنا يصلح غطاء لها ولنواياها، وجسراً تصل عليه إلى أغراضها وأطماعها، فلذلك لم تر أن تجهر برفض الفكرة، بل قبلتها وعملت على عرقلة المؤتمر سرا . ومن ثَمّ اقترحت على فرنسا أن تطلب من سلطان تركيا إرسال جنوده إلى مصر ، لحفظ النظام. وكانت بريطانيا تهدف من هذا الاقتراح أن تقبل فرنسا هذه الفكرة فتنعدم الحاجة إلى مؤتمر ،ما دامت تركيا صاحبة السيادة قد أخذت الأمر على عاتقها ، واستعدت لحفظ النظام فى مصر ، ولكن المؤتمر انعقد فى ٢٣ يونية ، أى قبل ضرب

الإسكندرية فى ١١ يولية بسبعة عشر يوماً .

وقد رفضت تركيا أن تشترك فى هذا المؤتمر ، فعقد فى السفارة الإيطالية، وفى جلسته الثانية التى انعقدت فى ٢٥ يونية وقع ميثاق النزاهة ، ووقعته بريطانيا كغيرها من أعضائه ، وقد جرى نصه كالآتى :

« تتعهد الحكومات التى يمثلها الموقعون على هذا أنها فى كل تسوية يقتضيها العمل المشترك لتنظيم شؤون مصر لا تسعى إلى امتلاك شىء من أراضيها ولا إلى أى إذن بأى امتياز خاص ولا إلى أى فائدة تجارية لرعاياها إلا ما كان عاماً يمكن أن تناله أية أمة أخرى » .

وفى هذه الأثناء حاولت تركيا أن تصرف الدول عن استمرار انعقاد المؤتمر بحجة أن الحالة فى مصر قد هدأت ، وأن وزارة راغب باشا قد ألفت بعد أن بقيت مصر أياماً بلا وزارة .

ومالت إيطاليا إلى هذا الرأى ، لأنها كانت متأثرة بألمانيا والنمسا اللتين كانتا تعملان ضد فرنسا وإنجلترا . أما روسيا فقد قال وزير خارجيتها المسيو دى جيير : إذا اقتضت الضرورة التدخل ، لعدم كفاية التأثير الأدبى فى حل الأزمة المصرية، فتركيا أحق الدول بإعادة المياه إلى مجاريها فى مصر ، فإن أبت تركيا ، فقد يعهد بالأمر إلى إنجلترا وفرنسا على شريطة أن يرافق

جيوشهما مندوبون من قبل جميع الدول الأخرى .

وكانت إنجلترا طوال هذا الوقت وبعده ، تصف الحالة فى مصر ، بصورة تشعر بأن الثورة فيها ليست وطنية ، إنما هى حركة تعصب دينى أحمق ، وأن الأجانب يقتلون وتتعرض أرواحهم وأموالهم للأذى ، ليتيسر لها الانفراد بالعمل فى مصر .

ولذلك تضايق اللورد دوفرين مندوب إنجلترا فى المؤتمر حينما اقترحت إيطاليا اقتراحاً نصه : « ينبغى أن يكون معلوماً أنه ليس لأية دولة أن تقوم بعمل انفرادى فى مصر ما دام المؤتمر منعقداً » . وما زال اللورد دوفرين بالمؤتمر حتى أضاف إلى هذا الاقتراح عبارة « ما لم تقتض الظروف القاهرة غير ذلك » .

وأخذت إنجلترا تذكر فروضاً مختلفة للظروف القاهرة التى تسمح بالتدخل الفردى ، حتى أحست الدول الأخرى بأن إنجلترا تنوى هذا التدخل الفردى ، فقرر المؤتمر أن هذا التدخل يجوز لتركيا وحدها .

فى ظل هذه الظروف الدولية وقع الاحتلال البريطانى ، ومن بيان هذه الظروف يتضح ما كان للدور تركيا من الأهمية الدولية ، وكم كانت الفرص متاحة لها لأن تمنع الاحتلال ، وأن تسد الباب فى وجه المطامع ، ولكنها لم تفعل ، وكان على مصطفى كامل ، وقد آلت إليه هذه التركة المثقلة من أعباء

الماضى ، وتقصير السلف، أن يبنى سياسته على حقائق حياة أمته ، وحقائق السياسة الدولية.

لم تستطع بريطانيا حينما احتلت مصر ، أن تعلن أنها تتخذ إجراء دائماً ، لأنها أقدمت على ذلك الاحتلال، وهى تشعر أنها خانت العهدالذى قطعته على نفسها فى مؤتمر النزاهة ، وأنها غدرت بالدول التى اشتركت فى هذا المؤتمر ، ولذلك أعلنت على لسان وزير خارجيتها ، ومندوبها اللورد دوفرين ، أن الاحتلال إجراء مؤقت. وكان من أكبر الأمور ضغطاً على بريطانيا من الناحية الدولية ، تبعية مصر فى ذلك الحين لتركيا. ولم تكن بريطانيا تود أن تتنكر لتركيا أو تدخل معها فى حرب ، ولذلك لم تتحد هذه التبعية، ولم تعمل شيئاً من الناحية الرسمية أو من الناحية الدولية يخالف مقتضاها ، أو يمسها مساساً جوهريا، وبذلك كان مركز بريطانيا فى مصر قوياً غاية القوة من الناحية الفعلية ، لأنه مستند على جيش احتلال قوى ، فى أمة جرد أبناؤها من السلاح وسرح جيشها ، وأغلقت أبواب مصانعها الحربية ، ولكن مركز بريطانيا فى مصر ، كان فى الوقت نفسه ، غاية فى الضعف ، من الناحية الشرعية الدولية ، لا لأنها اغتصبت مصر اغتصاباً ، فالقانون الدولى يعرف ألواناً من الاغتصاب ويقرها : يعرف الحماية ، ويعرف تبعية

المستعمرات للدول المستعمرة ، ويعرف الإلحاق ، ولكن بريطانيا لم تستطع أن تسمى وجودها المادى فى مصر ، بشىء من هذا .

لم تستطع أن تسمى وجودها حماية ، لأن هذه الحماية تتعارض مع حقوق تركيا الرسمية التى لا قيمة لها من الناحية الفعلية ، ولكنها كانت مع ذلك باقية على الورق ومعترفاً بها بين الأمم ، ولم تستطع أن تسمي مصر مستعمرة لأن ذلك أمعن فى إنكار سيادة تركيا الوهمية الرسمية .

ولسنا نحن الذين نقول ذلك فإن اللورد لويد فى ص ١٩٢ من كتابه « مصر منذ عهد كرومر » يقول وهو يتحدث عن إعلان إنجلترا الحرب على تركيا فى الحرب العالمية الأولى التى وقعت فى أغسطس سنة ١٩١٤ :

« كان يجب مواجهة أخطر وأصعب مشكلة فى وقت قريب وتلك هى مشكلة تحديد مركز مصر ، حينما تعلن الحرب ضد تركيا .

« وقد يكون من المفيد أن نذكر باختصار الحقائق العامة الرئيسية ، فيما يتعلق بمركزنا فى مصر ، كما كان فعلا فى تلك الآونة .

« لقد كان مركزنا غاية فى القوة من الناحية العملية ، وغاية فى الضعف من الناحية الشرعية ».

فمن الناحية الفعلية كان مركزنا يستند إلى احتلال الجيش البريطانى ، وهذا الجيش تعزز فى فترة الحرب بالقوات الإمبراطورية المختلفة ، التى كانت لازمة لمواجهة خطر غزو مصر من الخارج .

وفى فترة الحرب زاد نفوذنا الفعلى زيادته الهائلة بسيطرتنا على البحار التى كانت تعين على عزل مصر عن الخارج تماماً إذا أردنا . هذه الحقائق جعلت من حقنا أن يسمع رأينا فى توجيه الأمور فى مصر ، فقد استمد موظفونا وممثلونا من وجود الاحتلال البريطانى سيادة كافية .

أما مركزنا من الناحية الشرعية فكان مناقضاً تماماً لهذا المركز العملى القوى ، فمن الناحية الدستورية كان الحاكم لمصر هو الخديو ، وكان مجلس الوزراء هو ناصحه ومستشاره ، ولم يكن لقنصل بريطانيا وجود دستورى أو حقوق ناشئة عن أية معاهدة أو اتفاقية أبرمت بين البلدين ، مصر وإنجلترا ، ولم يكن الموظفون البريطانيون بالحكومة المصرية من الناحية القانونية أكثر من مرءوسين وتوابع للخديو . ولم يكن من قيد شرعى على سلطة الخديو ، سوى قيد واحد معترف به دولياً ، ذلك هو " السيادة العليا لسلطان تركيا ، فمصر من الناحية القانونية

الفنية كانت ولاية عثمانية وكان الخديو يتلقى الملك بأمر من السلطان الذى يعترف هو لعظمته » .

فأى سياسى يجد هذه الناحية الضعيفة فى الاحتلال البريطانى ، أو هذه الثغرة المكشوفة ، ولا ينفذ فيها إلى مقتل فيه. لا يعمى عنها إلا أبله . ولم يكن مصطفى كامل هذا الأبله . بل كان سياسيًّا حاذقاً غاية الحذق، بارعاً غاية البراعة . ولذلك أحسن استعمال هذه الورقة الهامة ، فى حلبة السياسة الدولية . وكان يحرج بريطانيا بها ، فى خطبه وفى أحاديثه ولم تكن بريطانيا تستطيع أن تنكر أن وجودها غير شرعى وكانت أقصى ما تملكه هو أن تقول إنها ستجلو حالا .

ومن هنا تعددت وعود بريطانيا بالجلاء فبلغت أكثر من ٦٥ وعداً ، وقاربت أن تكون سبعين وعداً ، خلال سبعين عاماً أى بواقع وعد فى العام الواحد .

فالذين يزعمون أن مصطفى كان يدعو لتبعية مصر لتركيا ، هم كما قلت جاهلون ، وكاذبون .

جاهلون بهذا التاريخ الذى بسطت لك طرفاً منه ، وكاذبون لأن مصطفى كامل . قال وفعل ، عكس هذا الذى يفترون به عليه .

خذ مثلاً ما جاء فى خطاب مبكر أرسله إلى مدام جوليت

آدم فى ١٢ يولية سنة ١٨٩٧ وهو فى مطلع حياته السياسية :

« إنك تعلمين خطتى نحو تركيا، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى ، وقد اعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة الوطنية لمصر ، أن نكون مع تركيا، بما أن الإنجليز محتلون وطننا العزيز » .

فانظر أولا : ما دام الإنجليز محتلون وطننا العزيز، وانظر أيضاً : أن نكون مع تركيا .

فالأولى تدل على أن سياسته مؤقتة ، ومعلقة على وجود الإنجليز فى مصر ، فهى لا تمتد إلى ما بعد جلائهم عنها .

والثانية تدل على أن كل ما تعمله مصر ، هى أن تكون مع تركيا فى معسكر واحد ، وهو ما يقع بين الدول المستقلة ، وهذا ما قاله مصطفى كامل تقريباً بالحرف الواحد فى خطبته التى ألقاها فى الإسكندرية فى يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ أى قبل وفاته بأقل من ثلاثة أشهر .

رمانا الطاعنون أيضاً بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنقدمها لتركيا كولاية عادية، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى .

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكاً بالعبودية ...

فهذه التهمة هي مسبة للمدنية والمتمدينين .

« فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإننا نعمل كغيرنا فنتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون ، وإذا كانت إنجلترا تسعى للتقرب من الدولة العلية – تركيا – وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً ، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولاً وفعلاً وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا » .

فماذا يقول الكسالى الجاهلون وقد وضعنا تحت نظرهم هذين النصين اللذين يحدان حياة مصطفى كامل السياسية ، أحدهما صدر منه وهو فى السن المبكرة لهذه الحياة القصيرة ، وثانيهما كان ختاماً لهذه الحياة ؟ ؟

١٣

أخى المواطن :

ماذا كان يحدث لو لم يهاجر فريد من مصر إلى تركيا فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٢؟ هذا سؤال ضخم ، لم يعرضه أحد من المؤرخين على بساط البحث ، لأن افتراضه عبث لا طائل تحته ، والحق أنه عبث، لأن فريداً لم يهاجر فعلا . فتصور عدم هجرته أمر أدخل فى نطاق الأدب ، منه فى نطاق العلم والتاريخ المحقق .

ولكن افتراض هذا الفرض، مع ذلك يفيد المؤرخ ، لأنه يعينه على دراسة تاريخ الحقبة الواقعة بعد سنة ١٩١٢ فى ضوء أكبر ، إن هذا السؤال يأخذ بيد الباحثين إلى تحديد أكثر كمالاً وعدلاً ، للدور محمد فريد فى تاريخ مصر .

لقد درجت على القول بأن مصطفى كامل فى تاريخ مصر الوطنى والسياسى الحديث هو كالسور القصار فى القرآن ، وفى تاريخ الإسلام. أما محمد فريد ، فكالسور الطوال فى كتاب الله العزيز ، وتزيدنى الأيام اقتناعاً بهذا التشبيه .

فمصطفى كامل، كان كالشهاب الخاطف ، قصير العمر!
بدأ كفاحه الوطنى شاباً ، ومات فى ريعان الشباب ، وكان دوره الدعوة، فى شمول معناها ، وفى مستوياتها العامة المطلقة. كان أذاناً، وتبشيراً، وإيقاظاً، وإهابة . كان كلامه حاراً ، له طابع الشعر ، وفيه وزن الموسيقى وجمال إيقاعها .

فلما لحق بالرفيق الأعلى ، وآلت الزعامة إلى محمد فريد لم تعد الأمة فى حاجة إلى من يدعوها ، فقد استجابت لدعوة مصطفى كامل ، وعبرت عن هذه الاستجابة مراراً ، استجابت له حينما نفذ حكم دنشواى، واستجابت له حينما خرجت تشيع جثمانه هو، فى جموع لم يشهد التاريخ المصرى الحديث مثل احتشادها لحادث سياسى من قبل : إذن وقفت الأمة على قدميها، ووقفت أمام الاحتلال وجهاً لوجه ، فلم يعد للاحتلال مفر من أن يختار أحد أمرين : إما أن يفسح لها الطريق ، لتغلبه على أمره، وتقذف به من سماء قوته وإما أن يخنقها ، ويكتم أنفاسها .

وقد تريث الاحتلال فى البطش الساخر بالحركة الوطنية ، لأن تقليد الاحتلال البريطانى فى كل مكان هو أن يضبط نفسه ما دام الأمر مقدوراً عليه، بغير العنف . فإن أنس من جانب الوطنية قوة ، تجاوز هو كل حد ، ولجأ إلى كل سلاح ،

وبطش بكل فضيلة ، وداس كل قانون . فما يبدو على أسلوب الاحتلال البريطانى من ميل إلى المسالمة ، وأخذ للمسائل برفق ، وعلاج للمشاكل بهدوء مرده أن حظ بريطانيا ساقها إلى أمم كانت الكوارث والمصائب قد خنثت رجالها وأفقدتهم الميل إلى النضال ، فإذا استعادت هذه الأمم غريزة القتال وقاومت ، نزل بها العذاب ألواناً .

ولم يترك مصطفى كامل مصر ، إلا بعد أن عاد إليها حب القتال ، واستيقظت فيها غريزة النضال ، فكان على محمد فريد أن يقودها فى هذه المعركة الشاقة المرهقة فكان كفئاً لهذه المهمة ، بل لعله تعجل المعركة قليلا ، قبل أوانها ، تحرقاً لمنازله الأعداء .

لقد خرجت الحركة الوطنية ، من حجرات دار اللواء حيث كانت المقالات الوطنية تكتب إلى مجال الشعب العام . إلى الشوارع . . .

وقد بدأ هذا التدرج بسيطاً ، ولكنه وصل إلى غايته سريعاً ، وكانت البداية فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٨ ، يوم احتفال الجيش البريطانى فى مصر ، بعيد الإمبراطورية ، فقد هتف طلبة مدرسة الحقوق المجاورة لميدان عابدين ، مكان العرض العسكرى المقام لهذه المناسبة .

هتف الشعب، ما أغرب ذلك وما أعجب !

فإن هذا الشعب كان دوره مقصوراً على أن يقرأ المقالات ويسمع الخطب، ولم يكن يصدر عنه شيء ، فما الذى أنطقه، ثم ما الذى جعل أول ما نطق به تحدياً لجيش الاحتلال نفسه ، وفى يوم الاحتفال بعيد الإمبراطورية ؟ ؟

كانت الحركة الوطنية ، قد جاشت ، ووصلت إلى حافة الانفعال فى يوم وفاة مصطفى كامل ، وكان تدفق جموعها إيذاناً بأن الانفعال الداخلى أصبح تعبيراً خارجياً . .

ولكن هذا التعبير الخارجى الذى بدأ بالهتاف يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٨ استحال فى ٢٦ مارس سنة ١٩٠٩ ، إلى صدام مع قوة الاحتلال ممثلة فى البوليس المصرى الذى كان يرأسه ويشرف عليه ويديره حكمدار بريطانى .

وقع الصدام من أجل الأداة التى تعبر بها الحركة عن نفسها، أعنى الصحافة .

ذلك لأن وزارة بطرس غالى التى ضمت سعد زغلول وحسين رشدى ومحمد سعيد، أصدرت فى ٢٥ مارس قراراً بإعادة العمل بقانون المطبوعات الذى أصدرته حكومة الثورة العرابية لاعتبارات الثورة القائمة وقتذاك، فانعقدت لجنة الحزب الوطنى الإدارية برياسة محمد فريد، واستنكرت إعادة العمل بهذا القانون .

واستجاب الشعب فوراً لهذا التوجيه فاجتمع فى حديقة الجزيرة آلاف من طلبة المدارس العليا والتجار والعمال وساروا فى مظاهرة حافلة حتى ميدان الأوبرا . . .

وفى يوم الأربعاء ٣١ مارس تجددت المظاهرات وخرج من صفوف المتظاهرين خطباء الشعب ، هؤلاء الخطباء الذين يعرفون كيف يلهبون الجموع بعباراتهم الحماسية التى ينتقونها ، وهم معلقون على أفرع الأشجار أو محمولون على أعناق الزملاء .

وجد الشباب إذن أداته للتعبير ، كما وجد من قبل أهل البيوت وأصحاب المكاتب، وسيلتهم لهذا التعبير ، وهى الصحيفة . وأحاديث المنتديات.

ولكن كيف حدث هذا التطور ؟

حدث لأن محمد فريد اتجه إلى الشعب ، وقد ربط نفسه بهذا المحيط الفسيح حينما جعل أساس سياسته هو مواجهة مشاكل الشعب ، ومحاولة حلها .

فأنشأ مدارس الشعب ، وأنشئت أول مدرسة من هذا النوع فى حى بولاق ، والتى أول درس فيها المرحوم الأستاذ أحمد لطفى، فى موضوع (شئون اجتماعية) ! وإنى لأرجوك أن تقف أمام هذا الموضوع ، وأن تتأمل عنوانه ، لأنه ذو دلالة كبرى ، فإن الحديث فى الشؤون الاجتماعية ، الذى هو طابع أيامنا هذه

كان أمراً نادر الوقوع فى أيام محمد فريد .

والتأمل فى برنامج هذه المدارس ، يزيد الإنسان فهماً لعقلية محمد فريد، والحزب الوطنى فى هذه الحقبة ، فقد كان البرنامج يتناول الشؤون الاجتماعية، وقانون الصحة، والصحة الوقائية ، ورعاية الطفولة، والقوانين المتصلة بالحياة اليومية ، وتاريخ مصر، والتاريخ الإسلامى .

فمدارس الشعب من ذلك التاريخ المتقدم حاولت أن تنشر الثقافة السياسية والثقافة الاجتماعية بين أفراد الشعب ، لتأهيلهم لفهم قضايا الوطنية ، ولقيادة الحركات الشعبية عن فهم وإدراك وبصيرة .

وكان طبيعياً أن يلتفت محمد فريد ، وهو صاحب هذه النزعات الاجتماعية الأصيلة إلى الجناحين اللذين يحلق بهما كل حركة شعبية فى العالم، وهما الفلاحون والعمال، فأحس بحرمان العمال من كافة الضمانات والحمايات التى كان العمال فى غير مصر قد ظفروا بها . فكتب فى جريدة الديلى نيوز مقالاً قال فيه فى يولية سنة ١٩٠٨ :

« إلى الآن لا توجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ، ولا قوانين تحدد سنهم ولا عدد الساعات التى يجب أن يقضوها فى العمل ، فتجد العمال مثقلى الكواهل بلا رحمة خصوصاً فى

معامل الدخان ومعامل حلج القطن حيث يشتغل العمال الأطفال ذكوراً وإناثاً فى وسط من أردأ الأوساط من الوجهة الصحية والأدبية . »

ولكى تستطيع أن تعرف مقدار تقدم عقل محمد فريد ، وسبقه لمعاصريه ، أقول لك إنى أستطيع أن اتحدى بهدوء واطمئنان أن كلمة كهذه عن العمال ، لم ترد على لسان أى زعيم حزب سياسى آخر من الأحزاب التقليدية بعد محمد فريد حتى كان ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ — فالحديث عن العمال ، وعن تشريعاتهم والمطالبة بضمانات لمستقبلهم ، ولتحسين الحالة التى يعملون فى ظلها ، أمر كان غريباً غاية الغرابة ، عن العقلية السياسية المصرية ، وقد طبعت جميع محاولات محمد فريد وجهوده السياسية بهذا الطابع الشعبى .

فهو لم يرد مثلا أن تكون المطالبة بالدستور ، عملا يقوم به الخاصة ، فطبع عشرات الألوف من العرائض تتضمن كلها المطالبة بالدستور ، ووزعها أعضاء الحزب الوطنى ، على الشعب ليوقعوها ، ويؤيدوها ، فنشرت حملة العرائض هذه الفكرة الدستورية ، فى أوسع نطاق ، فوجهت الشعور العام هذا الاتجاه ، وزادت من إحساس السلطات عموماً مصرية ، وأجنبية ، بضغط الشعب .

لم يكن ممكناً، وفريد هذا أسلوبه وطابعه ، أن يبقى على أية علاقة بالخديو .

صحيح أن العلاقات بين مصطفى كامل والخديو ، كانت قد فترت بينهما قبل وفاة مصطفى كامل ، ولكنها لم تنقطع أبداً . ولما آلت الزعامة إلى فريد ، حاول الخديو أن يتلطف لفريد وأن يكسبه لصفه، وقد قبل هذا التلطف محمد فريد أول الأمر ، إلا أنه لم يلبث أن أحس أن هذا التلطف من قبيل المصافحة الرسمية التى تتم بين المتلاكمين، فى حلبة الملاكمة . فاستعد لها محمد فريد، وكال للخديو كما كال للإنجليز لكمات مصيبة شديدة .

إنه لم يدع للخديو أبداً فرصة الانحراف عن طريق الوطنية المستقيم، حينما أراد الإنجليز أن يعدلوا عن سياسة الشدة معه ، ليبدأوا سياسة التخدير والإغراء التى عرفت بسياسة الوفاق ، بعد أن عزل اللورد كرومر وحل محله السير الدون جورست ، كان محمد فريد يصلى الخديو شواظاً من نار كلما رأى هذا الانحراف .

وقد كان من حملاته على الخديو والإنجليز مقالا افتتاحياً نشره فى جريدة « الشعب » :

« لما بدأ السير جورست سياسته الجديدة الموسومة بسياسة

الوفاق كنت فى مقدمة من حذر الأمة منها فى أول خطبة عامة ألقيتها فى تياتر والشيخ سلامة حجازى فى ١٧ أبريل سنة ١٩٠٨ فأبنت ما يعود على الأمة من مضار بسبب اتفاق صاحب السلطة الشرعية مع المحتلين . »

وقد نفد صبر الخديو من ضغط محمد فريد المتجدد فرماه وبقية أنصاره من أبناء الحزب الوطنى بالتسرع ، فلم يسكت محمد فريد على هذا الهجوم، فرد عليه قائلا :

« لا أدرى ما الذى حمل سمو الأمير على اعتبارنا متسرعين وملحفين فى طلب الدستور مع أن مبادئنا لم تتغير من سنة ١٩٠٧ إلى الآن، بل ما زالت هى هى تلك المبادئ التى أساسها طلب الجلاء وطلب الدستور، والتى تم عليها الاتفاق فى حياة المرحومين لطيف باشا سليم ومصطفى باشا كامل فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٠٦ قبل أن يعلنها المرحوم مصطفى باشا كامل فى خطبته بالإسكندرية فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ؟ »

وقد أفضى ذلك كله إلى النتيجة الحتمية ، أن يكون محمد فريد هدفاً لاضطهاد الإنجليز والحكومة المصرية، وهذا ما دعاه إلى الهجرة إلى تركيا فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ . فهل أخطأ ، أو أصاب ؟ وماذا كان يحـــدث لو أنه بقى فى مصر حتى أعلنت الحرب العالمية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ .

أما هجرته فى ذلك الحين ، أى فى التاريخ الذى وقعت فيه . فلم يكن عليها غبار ، لأن محمد فريد ، وهو طليق ، بعد أن ارتبطت أسبابه ، بالمجال الدولى ، وأصبح معروف الاسم لدى المحافل الكبرى ، كان يستطيع أن يخدم قضية مصر ، وهو خارج مصر ، أكثر من الخدمة التى كان يؤديها لها ، وهو داخلها ، وسيف الرقابة والاضطهاد والسجن معلق فوق رقبته . ولا شك أنه حينما سافر إلى تركيا ، لم يكن يتوقع أن الحرب الكبرى ستعلن بعد هجرته إليها ، بسنتين وبضعة أشهر . ولو تكشفت له حجب الغيب ، لفكر طويلا فى مشروع الهجرة الذى عزم عليه ثم نفذه .

ولكنا مع ذلك نرى أن وجود الزعيم على رأس الحركة التى يقودها ، واتصاله المباشر ، بضباطها وجنودها ، يزيدها قوة ، وكل اضطهاد يصيبه ، يرفع من قدره ، ويزيد من نفوذه ، فالهجرة لا تجوز إلا حين يثبت أن الخطر متجاوز حرية الزعيم إلى حياته ، فهنا تجب الهجرة ، لأنها تنقذ الحركة جميعاً ، وتبقى عليها ، وتضمن لها الحياة . وقد لا يكون من المصادفة البحتة أن يهاجر الأنبياء الثلاثة موسى وعيسى ومحمد ، فى الوقت الذى يبلغ الائتمار بهم إلى حد التفكير فى اغتيالهم ، وحينما لا يكون ثم سبيل للنجاة غير الفرار . ولست أشك فى أن محمد فريد ، إذا

فترة الحرب ، فى الاعتقال ، ولكنه كان سيبقى الزعيم المدخر للحركة الوطنية طوال هذه الفترة . ولكان استمرار اعتقاله بعد أن تضع الحرب أوزارها ضرباً من المجازفة لم تكن بريطانيا تقدم عليه ولم يكن الشعب فى حاجة إلى أن يبحث له عن زعيم فى سنة ١٩١٨ ، بل كان زعيمه المعترف له بالسبق ، والفضل والقدرة هو محمد فريد غير منازع . ولما قامت إلى جوار زعامته ، زعامة أخرى تنافسها ولكانت زعامة مهيأة فعلا للقيام بتبعاتها ، تعرف مبادئها وتعرف أساليبها ، وتعرف ماذا تريد .

ولم تكن مصر لتضيع الوقت الذى ضيعته فى الخلافات التى نشبت بين أبناء المدرسة المعتدلة الذين كانوا لا يرون خيراً من التعاون مع الإنجليز ، فى ذلك الحين ، مما جعل الخلاف بينهم مقصوراً على مدى هذا التعاون ودرجته ، والإسم الذى يسمى به فى الوثائق والمستندات .

ولا شك أن محمد فريد ، كان يتجه بالحركة الوطنية الاتجاه الذى تأخر ربع قرن من الزمان ، اتجاه الشعب الصريح وإفساح المكان اللائق للفلاحين والعمال وأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة ، فإن رجلا يقول فى ٧ يناير سنة ١٩١٠ :

« العمال فى بلادنا مهملون كالفلاح فلا قانون يلزم المقاول

بقى فى مصر ، حتى إعلان الحرب العالمية ، فإنه كان يقضى بدفع تعويض لمن يموت شهيد عمله أو يفقد أحد أعضائه فيصبح عديم الكسب، ومن الأمثال العامية أن الفاعل (ديته أجرته) ولا الحكومة تفكر فى الدفاع عنه فهى لاتشغل كما قلنا إلا بدفع فوائد الديون للدائنين الأجانب ، أو هى شبه شركة لاستغلال وادى النيل .

« نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطأطئ رأسها أمامها وبفضل مجهودات هذه النقابات وضعت قوانين فى إنجلترا وفرنسا وألمانيا تضمن لكل عامل فى الصناعة أو الفلاحة معاشاً سنوياً متى يبلغ سناً معلومة .

« ولم يكن لديه ما يسد به الرمق ويمنعه من التكفف ولقد كان هذا القانون بإنجلترا هو الباعث على تغيير أساس ربط الضرائب» .

إن من كان يقول هذا فى سنة ١٩١٠ .. ماذا كان يقول فى سنة ١٩١٨ ؟ وماذا كان يقول بعد ذلك ؟

إن محمد فريد ، لو عاش فى مصر ، وامتد به العمر ، لكان زعيما عالمياً ، يقى مصر ، ويقى الشرق العربى كله ، بل يقى الشرق الأوسط ، ما تورط فيه ، وما زال يعانيه من الحيرة بين المذاهب والمبادئ ، ولعرف هذا الشرق منه نفسه ، أو عاد إليها ، ولبقى كما كان ، مصدراً لمعرفة أصيلة ، ومنبعاً لحضارة منيعة .

دار المعارف بمصر

تقدم

• مجموعة نوابغ الفكر العربى

دراسات عميقه مميزة لأعلام الفكر والأدب العربى تشتمل على عرض لعصر كل نابغة ، وترجمة لحياته ، وبحث فى مميزاته وآثاره ، ثم منتخبات من تلك الآثار .

صدر منها — ثمن النسخة ١٢,٥ قرشاً

ابن رشد	إخوان الصفا	السهروردى
الجاحظ	بشار بن برد	الشيخ إبراهيم اليازجى
الشيخ نجيب الحداد	بديع الزمان الهمذانى	المتنبى
محمود سامى البارودى	أبو الفرج الأصبهانى	البحترى
ابن زيدون	ابن الرومى	
الشيخ ناصيف اليازجى	الفرزدق	

• مجموعة فنون الأدب العربى

دراسات مركزة للأدب العربى فى كل فن من فنونه

صدر منها — ثمن النسخة

الغزل (جزءان)	الفخر والحماسة	الرحلات
الرثاء	المقامة	النقد
الوصف	التراجم والسير	الخطب
المديح	الترجمة الشخصية	الحكم و